إنذار من أنكر نعمة الله باقتراب أمر الله

سورة النحل المعروفة بالنعم

د. أحمد مصطفى نصير

شبكة الألوكة
www.alukah.net

إنذار من أنكر نعمة الله باقتراب أمر الله

سورة النحل المعروفة بالنعم

يري كثير من المفسرين أن سورة النحل تتحدث عن النعم، فسموها بسورة النعم، والحقيقة أنها تتحدث عن عذاب الله تعالى من جهة الكفر بالنعم، فهي وإن كانت تتناول صور شتى لنعم الله على عباده، فإن موضوعها الأساسي هو "كفران النعم"، وهذا ظاهر في قوله سبحانه ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، حيث كشفت الآيات عما أتى كما في قوله ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقوله ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

وقد بينت السورة بعدما استطردت في بيان نعم الله على عباده وصورها، أنهم وإن كانوا يعرفون نعمة الله فإنهم لا يشكرونه عليها، كما في قوله ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (83)، يعزى ذلك إلى أن المعرفة بخلاف التصور، حيث إن المعرفة على وجه الاعتياد تنقلب إلى نكران، كما في قوله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، أما من يطبع النعمة في ذهنه فهو يتصورها كلما غدا أو راح فذلك هو "الشاكر"، كما في قوله ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

ولكي تعالج السورة موضوعها الرئيسي لابد وأن تستظهر نعم الله تعالى في أكثر من صورة، لأن الحكم على الشئ فرع من تصوره، فمن تصور نعم الله ازداد شكرا، ومن لم يتصورها ازداد كفرا، ولذلك عددت السورة صور النعم في أكثر من مقطع ومناسبة، فكلما انتقلت لموضوع عادت للتذكير بنعم الله، كخلق (السماوات والأرض والإنسان والأنعام)، ونعمة الدفء والأكل والراحة والاستراحة وحمل الأثقال والمواصلات والركوب والزينة، والمطر والشراب والشجر والزرع والزيتون والنخيل والأعناب والثمرات، ونعمة تسخير (الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم)، وما خلق الله في الأرض من زرع مختلف ألوانه، وتسخير البحار ولحم الأسماك وحلية اللؤلؤ والمرجان، والفلك والجبال والأنهار والاهتداء بالنجوم، كل هذه النعم والإنسان عاجز عن شكر الله على نعمة واحدة منها حتى وإن أراد ذلك، بل إنه ليعجز عن أن يعد نعمة واحدة لقوله سبحانه ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (18).

كما أفردت السورة شوطا خاصا يبين إعياء النبي في مجادلة قومه له، حيث يجادلونه في كل شيء حتى القدر، وهو حريص على هداهم كما في قوله ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (37).

وأفردت شوطا آخر للمستضعفين، فنهت عن صورة الاستكانة التي قد تلحق ببعض المستضعفين فيظلون في السلبية حتى الموت دون أن يقدموا لدين الله شيء ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بينما مدحت الذين اتخذوا موقفا إيجابيا إزاء حالة الاستضعاف التي ابتلوا بها ﴿الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ (41) لتكشف لنا أن هذه المجتمعات الظالمة التي تناست نعم الله عليها وكفرت بها يوجد بينهم طائفة من المستضعفين المظلومين، وهؤلاء بعضهم ينجح في الإفلات منهم بدينهم فيهاجر في

سبيل الله ليجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة، وبعضهم لا يقدر على ذلك فيظل مستضعفا، وهؤلاء قد يُكرهون على الكفر، ولذلك بين الله حكمهم بأنهم معذورون طالما أن قلوبهم مطمئنة بالإيمان، وطالما أنهم يستمسكون بكتاب الله وأحكامه التي تدعو إلى العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

وقد ربطت السورة بين شكر النعم ومسألة التحليل والتحريم، وهي مسألة متعلقة بالتشريع الإلهي، وما يضعه البشر من قوانين وقواعد تخالف الشرع، يقول سبحانه ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (116)، فبينت الآياتة أنهم لا يفلحون، أي مهما أرادوا الإصلاح فإنهم يفسدون من حيث لا يشعرون، والله لا يصلح عمل المفسدين، في ذلك توطئة بينة لاقتراب نزول التشريع الإلهي لتنظيم حياة المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة، ولذلك استظهرت السورة أصنافا من صور الشرك كما في قوله ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

ثم عادت لتضرب المثال بصور من نعم الله على عباده قبل أن تهدد بإنزال العذاب على منكريها، فاستطردت في وصف نعمة الأنعام وإخراج اللبن من بطونها، ونعمة ثمرات النخيل والأعناب، وقارنت تلك النعم بعادة السكر الذميمة، واستطردت في وصف خلية النحل من حيث معاشها ومسكنها وعذائها ثم ما يخرجه الله من بطونها شرابا فيه شفاء للناس.

كما ذكرت الإنسان بخلقه ووفاته، وتفضيل الناس بعضهم على بعض في الرزق، ثم ذكرته بنعمة الزواج والتناسل والأحفاد والذرية، كل ذلك والناس لا يزالون ﴿يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ

رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ولذلك ضرب القرآن مثلا من واقع حياة الناس أنفسهم وكيف أنهم يرفضون الشريك في ملكهم، لكن يقبلونه على الله.

ثم عادت إلى وصف النعم وتعدادها، ليتأمل الإنسان خلقه من بطن أمه وامتنان الله عليه بحواس السمع والبصر والفؤاد، وليجول ببصره إلى السماء حيث الطير ما يمسكهن غير الله، ويتأمل كيف انتفع الإنسان من جلود الأنعام لتكون ملبسا ومسكنا وسجادا وأثاثا، وكيف انتفع بالجبال فكانت له مأوى ومسكن، يتقي الحر ويصنع الدروع، حتى أتم الله نعمته على خلقه لعلهم يسلمون لله.

ثم تأتي الآية المحورية التي يتغير بعدها الخطاب القرآن ليصطبغ بلون التهديد ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83)﴾ وتقطع شوطا في تصوير حال الكافرين يوم القيامة، ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ..﴾

ثم انتقل السياق بعد ذلك إلى أسلوب التقرير باستظهار مبادئ الإسلام الثابتة والتي لا تتغير مهما تغير الزمان لتثبت الطائفة المؤمنة على الحق، ولتفتح على الذين يجاورون المسلمين الباب لأن يحسنوا الجوار مع المسلمين الذين يتمسكون بتلك المبادئ التي تتبدل بتغير الأحوال والزمان والمكان، فيحافظوا على عهودهم معهم ولا ينقضوها، تلك المبادئ التي تدور في فلك المبادئ الثابتة المتقدم ذكرها، أي الأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي.

وردت الآيات على شبهة أن يكون القرآن مختلقا، واستتبع الرد بيان حقيقة أصحاب هذه الشبهة في إدارة دولتهم حيث يكرهون الناس على الكفر، وبينت أن حججهم وشبهاتهم هي في الأصل لأجل المماطلة، فهم في حقيقة الأمر ليسوا أهلا للمجادلة بالحسنى، بل هم غاشمون، والكفر مطبوع على قلوبهم، فبينت سبيل خلاص المستضعفين منهم بالهجرة من الفتنة، ثم الجهاد والصبر على ذلك.

ولأن السورة مكية وقريبة من انتقال الصحابة إلى العهد المدني، حيث تتوالى التشريعات الإلهية في المدينة بعدما أنصلحت العقيدة، فقد ضربت الأمثال لمزيد من الإيضاح، تمهيدا لشرح قضية الحل والتحريم، فبدأت بمثال عام على كفر النعم، وبينت أن الحلال هو الأصل والحرام هو الاستثناء، ولا حاجة للبشر أن يخترعوا دينا يحرم ما أحله الله أو يحل ما حرمه، ومن يفعل ذلك فإنه يقلد بني إسرائيل حيث حرم الله عليهم –بظلمهم– طيبات أحلت لهم كما في قوله ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، وعلى النقيض ضربت المثال بنبي الله إبراهيم ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ثم عرجت على ذكر أصحاب السبت المغضوب عليهم لجريمة الاختلاف في الدين والتحايل على أحكامه.

واختتمت ببيان آداب الدعوة في سبيل الله كما في قوله ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ حتى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

مقدمة السورة

قال تعالى {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2)}

قوله (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (1) المقصود بأمر الله (العذاب) الذي يترل على المكذبين وكانوا قبله يستعجلون أن يترل بهم، (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) (الحجر47)، قال ابن عاشور (وفي التعبير عنه بأمر الله إبهام يفيد تهويله وعظمته لإضافته لمن لا يعظم عليه شيء)[1].

وقد عبر الله عن مجيئه بصيغة الماضي لأن قريش ملت من تهديد النبي ﷺ لها بيوم كيوم بدر تنكسر فيه شوكة المشركين، ويعز الله أهل الإسلام وأهله فاستبطئوا إتيانه، فجاء التعبير عنه بصيغة الخبر للتأكيد عليه، إذ أضحى استعجال العذاب دأب الذين كفروا حين يوجه إليه النبي الدعوة إلى الإسلام، وينذرهم بعذاب الله، فكان ردهم (ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) (العنكبوت29)، وقال سبحانه (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) (العنكبوت54).

1) التحرير والتنوير ج13 ص 77

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولذلك قيل أن استعجال العذاب أصبح معنى من معاني الشرك، فناسب أن يُتره الله ويُعظم بعد ذكر الشرك، بقوله (سبحانه) يعني تتريه الله عن النقائص مطلقا، فذلك مقدم على قوله (تعالى) الذي تضمن إثبات صفة العلو والعظمة له سبحانه عما ينسبوه له من صفات النقص.

ويجوز كذلك أن يكون المقصود بأمر الله تشريعاته المدنية التي كان الصحابة في شوق إليها، حيث كانوا في مكة يتشوقون لأن يتزل الله شرعا في تحريم الخمر، وشرعا بفرض الجهاد...وهكذا، ولكنهم لا يزالون في العهد المكي، ولا يزال ثمة وقت واجب للانتظار حتى العهد المدني، والمعنيان جائزان.

قوله (يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) (2) تتزيل الوحي الذي هو حياة القلوب أعظم النعم من الله تعالى على عباده، قال ابن عاشور (أطلق على الوحي) اسم الروح على وجه الاستعارة لأن الوحي به هدى للعقول الحق)[1]، كما في قوله (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى52)، فنعمة الوحي هي خير النعم.

قوله (أَنْ أَنْذِرُوا) هذا هو مقصود السورة الإنذار قبل أن يتزل العذاب.

فقوله (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا) أي (لا إله إلا الله)، فهو لفظ جامع لكل أصول الاعتقاد في الله تعالى، فالتوحيد أول وأهم ما دعت إليه الرسل، لأنه الأساس الذي يبنى عليه الدين، فعَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ أَيْ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ)[2]، ذلك أن الاعتقاد في الله أنه سبحانه الواحد الأحد الفرد الصمد الخالق البارئ المصور القادر على كل شيء لا شريك له في ملكه، وأنه هو وحده المدبر والمهين، يجعل المسلم يستسلم بكل

1) التحرير والتنوير ج13 ص 78

2) رواه البخاري ج12 ص 268 رقم 3595

جوارحه لله رب العالمين، فلا يخشى إلا الله، ولا يرجو سواه، ولا يدعو غيره، فيكون الله وحده هو قصده وغايته، لا يبتغي منه غير رضاه.

وقوله (فاتقون) جامع لكل صور العمل الصالح، وإفراد الله بالعبادة يتضمن إفراده بالتقوى منه، كما في قوله (وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ) (البقرة/41)، وقوله (وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (52) أي اجعل تقواك من أمر واحد وهو الله سبحانه، لأن كلمة التقوى هي (لا إله إلا الله)، (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) فالتزام التقوى يعني التزام إخلاص العبادة لله.

فلا يغضب إلا لله، ولا يفرح إلا برضا الله، ولذلك تنازل النبي ﷺ عن أن يغضب لحق نفسه، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها (وَاللَّهِ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ)[1]، وقد تربى الصحابة على ذلك فكانوا لا يفعلون شيئا إلا لله، يقول معاذ (أَحْتَسِبُ نَوْمَتِي كَمَا أَحْتَسِبُ قَوْمَتِي)[2]، فيحتسب الأجر عند الله لأنه كما يعبد الله عند قيامه، فإن نومه عبادة لأنه أعطي للجسد حقه من الراحة، فاحتسب عليه الأجر كذلك، وتلك هي التقوى، أن تكون كل حركة يفعلها العبد وكل سكنة لله.

1) رواه البخاري ج21 ص 45 رقم 6288

2) رواه البخاري ج13 ص 239 رقم 3996

المبحث الأول

استظهار نعم الله تعالى على عباده

قال تعالى {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (3) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (4) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (9) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (10) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (11) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (15) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (16) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (17) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (18)}

قوله (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (3) إشارة القرآن إلى خلق السماوات والأرض هي أظهر دليل على قدرة الله سبحانه، فليس في الكون أعظم من خلقهما، كما في قوله (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (غافر57)، كما تضمنت الإشارة

(اختصاصه سبحانه بالخلق والتقدير)[1]، فهو الذي خلق السماوات والأرض وما دونهما، وهو المدبر لأمرهما وأمر ما فيهما.

قوله (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) (4) ثنى بذكر خلق الإنسان بعد ذكر خلق السماوات والأرض، حيث إن خلق الإنسان من شيء مهين وحقير لشيء معجز، لا يقدر عليه غير الله، أن يُخلق الإنسان من نطفة أصغر من نقطة ماء سبحان الله.

1) التحرير والتنوير ج13 ص 80

ووصف الإنسان بأنه "خصيم مبين" بعد بيان مهانة المادة التي خلق منها، وأنه لم يكن شيئا مذكورا، يظهر الفارق بين نعمة الله تعالى على عباده وتفضله عليهم بالخلق والإيجاد، ومقابلة العبد هذه النعم بالخصام المبين، فيعاند ربه ولا يشكره، ويتجاهل نعمه ويجحد بها، كما في قوله (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) (يس77)، قال القرطبي (أي يخاصم الله عز وجل في قدرته، و"مُبِينٌ" أي ظاهر الخصومة)[1]، تبدو المفارقة كاملة، والنقلة بعيدة، حين يقف الإنسان بين مشهدين وعهدين متواجهين: مشهد النطفة المهينة الساذجة، ومشهد الإنسان الخصيم المبين.

قوله (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) (5) عدَّد الله تعالى في هذه الآية كثير من المنافع التي يستخرجها الإنسان من الأنعام، تلك التي سخرها الله للانتفاع بها، قال تعالى (لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) (الحج37).

1) تفسير القرطبي ج10 ص 68

قال الواحدي في قوله (لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) يعني: (ما تستدفئون به من الأكسية والأبنية من أشعارها وأصوافها وأوبارها)، قوله (وَمَنَافِعُ) أي (من النَّسل والدَّرِّ – اللبن– والرُّكوب) [1].

وقوله (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) يشير إلى أن أكل اللحم كما أنه مفيد فإن الإسراف منه ضار كذلك، ولذلك يأكل الإنسان من اللحم دون أن يعتمد عليه اعتمادا كليا في غذائه، لأن تناول اللحوم لأكثر من 4 مرات للشخص السليم أو مرتين في الأسبوع للذي يعاني من بعض الأمراض المزمنة غير صحي [2].

أما الامتناع عن تناول اللحم بالكلية فهو ضار كذلك بالإنسان، لأن الإنسان حيوان لحمي، أي آكل اللحم[3]، ولذلك خلق الله له أربع أنياب ليمزق اللحم.

1) الوجيز للواحدي ج1 ص 415

2) تحتوي على نسبة عالية من الدهون المُشبعة، والإكثار منها يرفع مستوى الكوليسترول الضّار، ما يزيد من خطر الإصابة بأمراض القلب، والأوعية الدموية

https://arabic.cnn.com/health/article/2022/07/19/red-meats-pros-and-cons

3) عند التوقف عن تناول اللحوم، يمكن أن يعاني الشخص من نقص في اليود والحديد وفيتامين D وفيتامين B12. وخلل في عملية التمثيل.

يعاني النباتيون من نقص في المواد المغذية الضرورية لعمل أجهزة الجسم بصورة صحيحة. وان الذين يمتنعون عن تناول اللحوم سيشعرون حتما بنقص البروتينات والمعادن، وهذا يؤدي الى قصور في عمل القلب.

ولذلك فإن الامتناع عن تناول اللحم تعطيل لهذه الأنياب التي خلقها الله عن العمل، فالحكمة من خلقها تمزيق اللحم، فيكون الإنسان بذلك قد خالف الطبيعة التي خلقه الله عليها.

قوله (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ) (6) أي لكم فيها زينة وبهجة تضفي جمالا وسرورا على وجوهكم حين ترون أنعامكم حال حبسها في مراحها ترتاح وتنام، وحال إخراجها وتركها تسرح لتأكل من الأعشاب.

فهذه نعمة يذكر الله الإنسان بها، حيث يشعر بالصفاء والبهجة من امتلاك هذه الأنعام، وحبسها في مراحها، والسرور والفرح حين تسريحها لتأكل من الأعشاب.

قوله (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (7) ويدخل في المعنى كل ما صنعه الله من سفن وسيارات وطائرات ووسائل نقل حديثة لنقل الأمتعة والناس لمسافات كبيرة، فذلك كله من تسخير الله له، فسبحان الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

قال رسول الله ﷺ (من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء)[1].

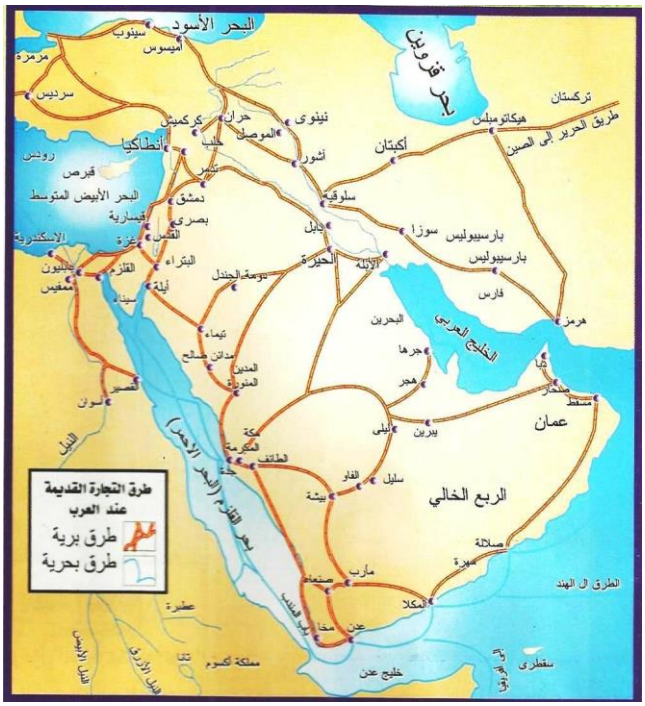

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ)، قَالَ: يَعْنِي مكة، " لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِــقِّ الأَنْفُسِ "، قَالَ: لو تكلفتموه لَمْ تطيقوه إلا بجهد شديد"[2]، وقيل أي من مكة إلى المدينة أو إلى اليمن أو

1) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 54 رقم 116 وصححه البخاري / صحيح الأدب المفرد ج1 ص 55

2) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 78

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إلى الشام أو إلى مصر..الخ، قال الرازي (وخص ابن عباس هذه البلاد، لأن متاجر أهل مكة كانت إلى هذه البلاد)[1].

قوله (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)(8) هذه الحيوانات خلقها الله لتكون وسائل نقل، والإنسان مهما ملك من وسائل نقل حديثة يحب التباهي بالخيل والبغال والحمير، لما في ركوب الخيل من متعة لا تقارن بتلك الوسائل الصناعية.

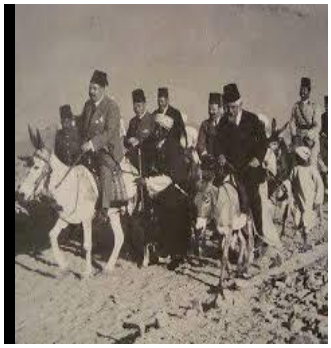

ولذلك يقول النبي ﷺ (الْخَيْلُ لِرَجُلٍ أَجْرٌ وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ فَأَمَّا الَّذِي لَهُ أَجْرٌ فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَطَالَ بِهَا فِي مَرْجٍ أَوْ رَوْضَةٍ فَمَا أَصَابَتْ فِي طِيَلِهَا ذَلِكَ مِنْ الْمَرْجِ أَوْ الرَّوْضَةِ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٍ وَلَوْ أَنَّهُ انْقَطَعَ طِيَلُهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا أَوْ شَرَفَيْنِ كَانَتْ آثَارُهَا وَأَرْوَاثُهَا حَسَنَاتٍ لَهُ وَلَوْ أَنَّهَا مَرَّتْ بِنَهَرٍ فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَسْقِيَ كَانَ ذَلِكَ حَسَنَاتٍ لَهُ فَهِيَ لِذَلِكَ أَجْرٌ وَرَجُلٌ رَبَطَهَا تَغَنِّيًا وَتَعَفُّفًا ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا ظُهُورِهَا فَهِيَ لِذَلِكَ سِتْرٌ وَرَجُلٌ رَبَطَهَا فَخْرًا وَرِيَاءً وَنِوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَهِيَ عَلَى ذَلِكَ وِزْرٌ) [2].

1) تفسير الرازي ج9 ص 351

2) رواه البخاري ج8 ص 193 رقم 2198

وقوله (وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) إشارة إلى ما يخلقه الله تعالى من صنع الإنسان فيما يستقبل كالطائرات والبواخر والسيارات وغير ذلك[1]، قال الألوسي (تحيير للإفهام وعجيز أي تعجيز عن أن تدرك الملك العلام)[2]، انظر كيف سخر الله الريح لتنقل نبي الله سليمان حيث شاء، قال تعالى (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ) (ص/36)، وخلق الله البراق لينقل نبي الله محمد ﷺ في رحلة الإسراء إلى المسجد الأقصى من المسجد الحرام في أقل من طرفة عين.

قوله (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) (9) أراد الله أن يبين أنه باستظهار ما تقدم من آيات فقد هدى الإنسان إلى النجدين ليختار هو أيهما أهدى، قال الزمخشري أي (أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه)[3]، كقوله (إِنَّ عَلَيْنَا للهدى) [الليل: 12]، والمعنى أن (على الله أن يبين لكم السبل الموصلة إلى جناته ومرضاته كما أنه بين لكم الطرق التي تبلغوا إليها

1) في هذا المعنى أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 290، تفسير السعدي ج1 ص 436
2) تفسير الألوسي ج10 ص 190
3) الكشاف ج3 ص 337

حاجتكم في الدنيا) [1]، ولذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وأنعم بالنعم ليهتدي الإنسان إلى السبيل الوصل إلى مرضاته وجنته.

وقوله (ومنها جائر) أي من هذه السبل من يضل عن طريق الله، فيسير فيه الناس فيصلون إلى الظلم والجور على بعضهم البعض، والمناسبة أنهم لا يهتدون إلى الله رغم كل هذه النعم التي صورها لهم، فعن عبد الله رضي الله عنه قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطا ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطا ثم قال: هذا سبيل الله و هذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)[2].

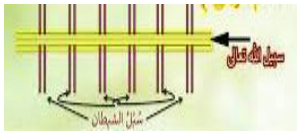

قال الشاطبي (ففي الحديث أنها خطوط متعددة غير محصورة بعدد، فلم يكن لنا سبيل إلى حصر عددها من جهة النقل، ولا لنا أيضًا سبيل إلى حصرها من جهة العقل أو الاستقراء، أما العقل فإنه لا يقضي بعدد دون آخر، لأنه غير راجع إلى أمر محصور، ألا ترى أن الزيغ راجع إلى الجهالات؟ ووجوه الجهل لا تنحصر، فصار طلب حصرها عناء من غير فائدة، وأما الاستقراء فغير نافع أيضًا في هذا المطلب، لأنا لما نظرنا في طرق البدع من حين نبتت وجدناها تزداد على الأيام، ولا يأتي زمان إلا وغريبة من غرائب الاستنباط تحدث، إلى زماننا هذا) [3].

1) https://www.youtube.com/watch?v=VIAJMmEH65A الشيخ مصطفى العدوي
2) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 348 رقم 3241 وصححه الألباني: شرح العقيدة الطحاوي 587/1، مشكاة المصابيح36/1
3) كتاب الاعتصام ج1 ص 166

وقوله (وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) كقوله (لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا)، قال العلماء (أي لو تعلقت بإرادته هداية الناس أجمعين لهداهم أجمعين وذلك لكمال قدرته وعلمه، إلا أن حكمته لم تقتض هداية لكل الناس فهدى من رغب في الهداية وأضل من رغب في الضلال)[1]، أي لو شاء الله لجعل الناس كالملائكة تنزل بالوحي ولا تعصي الله ما أمرهم، ولكنه سبحانه خلق خلقا آخر يعصيه ويتوب فيغفر له، وآخرون يكفرون فلا يتوبون فيعذبهم، (ولكنه شاء أن يخلق الإنسان مستعداً للهدى والضلال، وأن يدع لإرادته اختيار طريق الهدى أو طريق الضلال، فكان منهم من يسلك السبيل القاصد، ومنهم من يسلك السبيل الجائر، وكلاهما لا يخرج على مشيئه الله التي قضت بأن تدع للإنسان حرية الاختيار).

قال ابن القيم (أخبر عن عموم مشيئته وأن طريق الحق عليه موصلة إليه فمن سلكها فإليه يصل، ومن عدل عنها فإنه يضل عنه، والمقصود أن هذه الآيات تتضمن عدل الرب تعالى وتوحيده، والله يتصرف في خلقه بملكه وحمده وعدله وإحسانه فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وشرعه وقدره وثوابه وعقابه، يقول الحق ويفعل العدل والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، فهذا العدل والتوحيد الذين دل عليهما القرآن لا يتناقضان)[2].

قوله (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)(10) فيه تقسيم الماء إلى ماء نقي صالح للشرب وآخر صالح للري هو تقسيم إلهي قبل أن يعرف البشر ذلك، فالماء المخصص للزرع هو كذلك مخصص للاستزراع السمكي، وكذلك لرعاية الدواب في المراعي لتأكل وتشرب.

---

1) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 290

2) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 145

والإبل السائمة هي الإبِلُ الرَّاعِيَةُ، يقال: سامَتِ الرَّاعية والماشِيَةُ والغَنَمُ تسومُ سَوْمًا؛ إذا رعَتْ حيث شاءَت، ولَا تُعلَفُ في الأصْلِ، السَّائمة اصطلاحًا: هي التي ترْعى في الكَلأِ المُباحِ مِن نباتِ البَرِّ، وتَكتفي بالرَّعيِ، فلا تحتاجُ إلى أن تُعلَف.

فنعمة السوم هذه نعمة عظيمة، حيث تترك الإبل والأغنام والدواب تتحرك يمينا ويسارا إلى المراعي الطبيعية لتأكل منها بلا حساب، ولو حاول الإنسان أن ينشئ هذه المراعي بجهده لأعياه ذلك، فلتربية 5 عجول يحتاج المربي إلى فدان برسيم، أي أنه بهذا المعدل يحتاج لعمل مزرعة من 100 عجل إلى 20 فدان، وهكذا لن يقدر الفلاح على زراعة كل هذه المساحة لتربية العجول والمواشي، فيحتاج للمراعي الطبيعية التي تنبت حشائشها من الأمطار.

قوله (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (11) جاء الإجمال في قوله (الزرع) ثم التفصيل بذكر ثلاثة أنواع "الزيتون"، "النخيل"، "الأعناب"، ثم عادت الآية للإجمال مرة أخرى بقوله (ومن كل الثمرات)، فالزيتون من الزرع، لكنه لا يعد من الثمرات إلا بالنظر إليه في أوقات الجفاف، فيتغذي النحل على رحيق زهره.

وقد تفكر القرطبي في هذه الآية فربط بين غذاء النحل وتنوعه وبين العسل الذي يخرجه، فيختلف في خصائصه وصفاته وجودته بحسب ما يتغذى عليه، فقال في قوله (يتفكرون) أي (يعتبرون) ؛ (ومن العبرة في النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفكر في عجيب أمرها، فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحذقها باحتيالها في تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى؛ كما قال: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) [النحل: 68] الآية ثم أنها تأكل الحامض والمر والحلو والمالح والحشائش الضارة، فيجعله الله تعالى عسلا حلوا وشفاء، وفي هذا دليل على قدرته)[1].

1) تفسير القرطبي ج10 ص 140

نحل يرعى شجر الزيتون[1]

قوله (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (12) هذه الظواهر الكونية بما يسمى بفيزياء الفضاء يعجز الإنسان بعد دراستها إلا أن يسلم بأن هذا الكون هو صنع القدير العليم، وأنه مسخر للإنسان بأمر الله، فكلما ازداد علما ازداد تعقلا لهذه الحقيقة، بل وقاسها بالأرقام.

الليل والنهار والشمس والقمر

Sustaining the alternation of day and night and the four seasons , also Tides

1) وقد بحثت هل يرعى النحل على شجر الزيتون فوجدت أن كثير من أهل التجربة لم ير ذلك، يعزى ذلك إلى صغر زهر الزيتون وصغر حجم حبوب اللقاح التي تنقلها الرياح، لكن بعض الناس أكدوا حدوث هذا الفرض، لاسيما في حالة جفاف مبكر للموسم وقلة الأزهار.
https://www.youtube.com/watch?v=sJebczPl0K8

حيث اكتشف العلماء أن هناك استدامة في تعاقب الليل والنهار والفصول الأربعة (الشتاء، الربيع، الصيف، الخريف) وكذلك حركة المد والجزر، بسبب حركة الأرض حول نفسها وحول الشمس وحركة القمر حول الأرض، وكل في فلك يسبحون، فسبحان الله.

قوله (وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ..) (13) أي ما خلق الله في الأرض من نبات مختلف ألوانه، ذرأ يعني: (خلق بالتناسل والتولد بالحمل والتفريخ)، (ومنه الذرية وهي نسل)[1] (جمع ذاريري)[2]

ومنه قوله (يَذْرَؤُكم فيه) معناه يُكَثِّرُكُمْ فيه أَي في الخلق.

قال ابن عاشور (وليس الإنبات ذرء)[3] لأنه ليس فيه تناسل، ولكنه يدخل في المعنى على وجه المجاز.

---

1) الشوكاني: فتح القدير ج3 ص 218

2) المعجم الوسيط ج1 ص 310 لسان العرب ج1 ص 79

3) التحرير والتنوير ج1 ص 2332

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حيث تتميز كل سلالة من الأنعام بلون معين

قوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) أي (يتذكرون أن اختلافها في الألوان والطبائع، والهيئات والمناظر، ليس إلا بصنع صانع حكيم) [1]، فاختلاف الألوان يطبع في الذاكرة دليلا على التنوع والاختلاف مع الاتفاق على وحدة الخالق، فتكون تلك الآية من أقوى الأدلة لتذكر قدرة الله المبدع الخالق.

فذاكرة الإنسان تتأثر فعلًا بالألوان التي تحيط به، من حيث نوعية الذكريات التلقائية التي تنجم عنها، فاللون الأخضر يساعد على تذكر المواقف المتفائلة الإيجابية [2]، واللون الأحمر يساعد على تحفيز الذاكرة وتنشيط المخ..الخ، والعجيب أن العين التي خلقها الله تبصر الألوان بسبب الانعكاسات الطيفية للضوء، وما خلقه الله فيها من قدرة على تمييز الألوان [3].

---

1) ابن عجيبة: البحر المديد ج3 ص 250

2) إقرأ المزيد على ويب طب:https://www.webteb.com/articles/

3) توجد في الشبكية نوعين مختلفين من الخلايا تعمل على ألتقاط الضوء والاستجابة. وهي المخاريط والنبابيت و هي خلايا متحسسة للضوء و تعرف بأسم المستقبلة للصورة .يبدأ عمل النبابيت في ظروف الأضاءة القليلة. أما المخاريط فتستجيب أكثر في الأماكن ذات الأضاءة القوية. كل أنسان لديه قرابة 6 مليون من المخاريط و 110 مليون من النبابيت، وتحتوي المخاريط على مادة لزجة أو جزيئات تلتقط الضوء. في كل أنسان هناك ثلاث أنوع من هذه المادة اللزجة الحمراء و الخضراء و الزرقاء كل نوع من هذه المواد يتحسس بدرجات مختلفة لموجات الضوء المرئية ـــ فخلال النهارعندما ينعكس الضوء على ليمونة تستتجيب له المخاريط الحمر و كذلك الزرق فترسل أشارات عن طريق العصب البصري الى القشرة البصرية في الدماغ

قوله (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (14) يعرف السمك بفوائده العديدة في التغذية الصحية [1]، فضلا عن سهولة الحصول عليه من البحر بصيده دون حاجة لتربيته ورعيه كالأنعام، كما يستخرج من البحر اللآلئ والمرجان والياقوت الذي يستخدم في الحلي والزينة، كما أن البحر يحمل السفن التي

التي توزع كمية المخاريط المتفاعلة و قوة الأشارة التي تحملها. بعد نقل الأيعازات العصبية نستطيع ان نرى اللون و هو الأصفر في هذه الحالة، وفي المكان المعتم فأن الضوء الذي ينعكس من الليمون يستميل النبابيت فقط و لذلك لا نرى اللون و انما ما نراه هو فقط تدرج اللون الرمادي على الرغم من ذلك فإن تجربتنا البصرية السابقة مع الأشياء أيضًا تؤثر في قابلية أستقبال اللون و هو ما يعرف بالأدراك البصري للون هذا الأدراك يضمن أستقبال لون أي جسم و ثباته في الذاكرة من غير أي تغيير رغم أختلاف نوعية الأضاءة. فأذا ما وضعنا الليمونة تحت ضوء أحمر من المحتمل جدًا بأننا نبقى مدركين أن لونها أصفر.

https://icrcat.com/ar/ مركز طب العيون ببرشلونة

1) يحتوي السمك على العديد من العناصر الغذائية الضرورية لصحة الجسم سواءً بالنسبة للرجال أو النساء، وتتضمن هذه الفوائد ما يأتي:

تعزيز صحة القلب والشرايين.

اكتساب الدهون الصحية.

مصدر مناسب للبروتينات.

تعزيز صحة الأعصاب والدماغ.

زيادة معدلات التركيز وتحسين الذاكرة.

تعزيز صحة العظام والوقاية من بعض أمراض العظام، مثل هشاشة العظام.

مصدر مهم لفيتامين د، وعدد من الفيتامينات والمعادن الأخرى، مثل الفسفور.

تعزيز صحة العيون.

المحافظة على نضارة وسلامة البشرة.

يشار أن للسمك بعض الفوائد الصحية للرجال بشكل خاص أيضًا، وذلك لاحتواء السمك على الدهون الصحية التي تساهم في إنتاج الهرمونات الجنسية الذكورية، بالإضافة إلى احتوائه على عنصر الزنك، وعنصر الفسفور اللذان يلعبان دورًا مهمًا في الصحة الجنسية وفي عملية الانتصاب لدى الرجال.

:اقرا المزيد من خلال موقع الطبي/https://altibbi.com

كالأعلام في البحر تحمل أطنانا من البضائع، يتم نقلها من بلد لبلد آخر، فيكون البحر وسيلة للتجارة بين الشعوب والبلدان.

قوله (وترى الفُلْكَ فيه مَوَاخِرَ) يعني جَوارِيَ، وقيل المواخر التي تراها مُقْبِلةً ومُدْبِرةً بريح واحـــدة، وقيل هي التي تسمع صوت جريها، وقيل هي التي تشق الماء، وقال الفراء في قوله تعالى (مـــواخر) هـــو صوت جري الفلك بالرياح يقال مَخَرَتْ تَمْخُرُ وتَمْخَرُ، وقيل مواخِرَ جوارِيَ والماخِرُ الذي يشق الماء إذا سبَح) [1].

قوله (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (15) (الإلقاء فيه إشارة إلى عمق جذورها في الأرض وهو أليق بالسياق الذي وردت فيه للدلالة على رسوخها)[2]، كما (ثبت في

1) لسان العرب ج5 ص 160

2) وقفات تدارس القرآن الكريم: https://tadars.com/app/api?ac=export&from=1916

العلوم العقلية أن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها في الجبال، فلهذا السبب لما ذكر الله تعالى الجبـــال أتبـــع ذكرها بتفجير العيون والأنهار)[1].

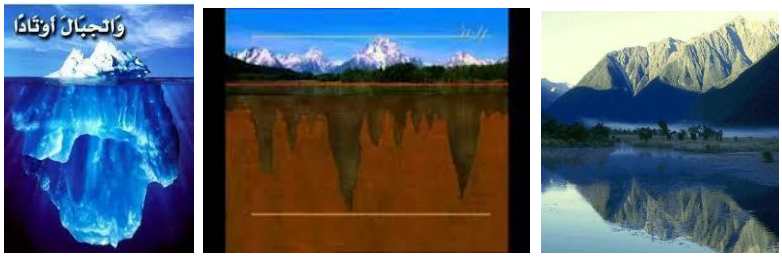

أما السبل أي الطرق فإنها كل ما ينشأ عن متخلفات الجبال والأنهار، أي اليابسة

قوله (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) أي تهتدون إلى الله سبحانه الذي خلق الجبال وفجر الأنهار وأبقـــى اليـــابس لتكون طرقا لنا نمشي فيها، قال أبو السعود (لكيْ تهتدُوا بسلوكِها إلى مقاصدِكم أو بـــالتفكُّر فيهـــا إلى التوحيد الذي هُو المقصدُ الأصليُّ)[2].

قوله (..وَعَلَامَاتٍ..) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْنِي: (معالم الطرق بالنهار)[3]، كالأشجار والأنهـــار والجبـــال والأودية والسهول وكل معالم التضاريس الجغرافية.

---

1) تفسير الرازي ج9 ص 366

2) تفسير أبي السعود ج6 ص 92

3) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 81

www.alukah.net
شبكة الألوكة

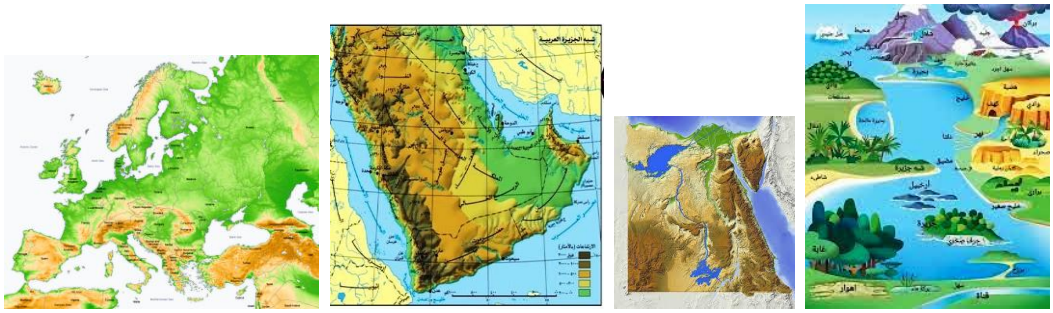

قوله (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)(16) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَعْنِي: بالليل"[1]، قال أسعد حومد (وَجَعَلَ اللهُ فِي الأَرْضِ دَلاَلاَتٍ (عَلاَمَاتٍ)، مِنْ جِبَالٍ وَآكَامٍ وَأَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ.. يَسْتَدِلُّ بِهَا المُسَافِرُونَ بَرًّا وَبَحْرًا، إِذَا ضَلُّوا الطَّرِيقَ، وَإِنَّهُ تَعَالَى أَلْهَمَ النَّاسَ الاسْتِدْلاَلَ بِالنُّجُومِ لِيَهْتَدُوا بِهَا أَثْنَاءَ سَيْرِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ، فِي البَرِّ وَالبَحْرِ)[2]، وقد أكد بحث ألماني أن الناس يسيرون في مسارات دائرية وهم لا يشعرون حيث يريدون السير في خط مستقيم في الصحراء، فيعودون لذات النقطة التي بدأوا منها ما لم تكن في الطريق علامات تحميهم من أن يضلوا المسار [3].

---

1) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 81

2) أيسر التفاسير لأسعد حومد ج1 ص 1918

3) إذ نشرت مجلة تدعى(current biology) بحثًا أجري في معهد ماكس بلانك الألماني مفاده أن الناس يحاولون السير بشكل مستقيم في المناطق التي لا يعرفونها لكنهم يسيرون بمسارات دائرية تعيدهم إلى النقطة التي بدؤوا منها إن لم تكن هناك أي علامات ترشدهم للطريق الصحيح.وقال السيد " جان سومان " وهو باحث في المعهد المذكور " لا يستطيع الناس السير في طريق مستقيم إن لم يكن لديهم علامة حقيقية ترشدهم كوجود برج أو جبل من مسافة معينة، او الشمس و القمر، وغالبًا ما ينتهي سيرهم بدوائر" .

مسارات عشوائية

و أكد الباحثون أن المسارات الدائرية تلك نادرًا ما تكون نظامية (ذات شكل دائري منتظم) إذ أن الشخص الضائع ربما ينحرف باتجاه اليسار، ثم ينحرف باتجاه اليمين قبل أن ينتهي به الأمر ليعود إلى نفس النقطة التي انطلق منها وحيث تحدث هذه الظاهرة بشكل طبيعي من خلال انحرافات عشوائية يقوم بها الأشخاص أثناء سيرهم بينما يظنون أنهم يسيرون بشكل مستقيم.

تجارب تؤكد الظاهرة

وأجرى الباحثون عددًا من التجارب في بيئتين مختلفتين في الغابات الضخمة المسطحة، والصحراء اشترك فيها عدة أشخاص

قوله (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (17) هذا هو موطن الاستشهاد بكل ما تقدم من نعم أنعم الله بها على عباده وذكَّرهم بها في هذه السورة، قال البيضاوي (إنكار بعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته وتناهي حكمته، والتفرد بخلق ما عدد من مبدعاته لأن يساويه ويستحق مشاركته ما لا

طلب منهم السير بشكل مستقيم قدر ما يستطيعون، وتم تسجيل مسارهم المنحني من خلال جهاز تحديد الإحداثيات (GPS).

التجربة في الغابة:

واشترك في تجربة السير بالغابات، ستة أشخاص، سار أربعة منهم لعدة ساعات في جو غائم، وكانت الشمس مختفية خلف السحب، وأظهرت النتيجة أنهم مشوا في مسارات دائرية، كما ان ثلاثة منهم مشو بشكل متكرر في نفس الطريق دون أن يلحظوا ذلك.

في المقابل سار الاثنان الآخران في جو صحو مشمس، فسجلت لهم مسارات مستقيمة ماعدا الخمس عشرة دقيقة الأولى من السير حيث كانت الشمس وقتها مختفية خلف السحب.

التجربة في الصحراء:

أما تجربة السير في الصحراء فقد اشترك فيها ثلاثة أشخاص مشو لعدة ساعات " في الصحراء الكبرى جنوب تونس " حيث مشى اثنان منهم في حر النهار، فسجلوا انحرفا عن مسارهم لكنهم لم يسيروا في دوائر، أما الشخص الثالث فسار ليلًا تحت ضوء كامل للقمر في بداية سيره لكن الضوء ما لبث أن تلاشى باختفاء القمر خلف السحب فسجلت له عدة انحرافات حادة عن مساره أعادته إلى النقطة التي انطلق منها.

يقدر على خلق شيء من ذلك بل على إيجاد شيء ما، وكان حق الكلام أفمن لا يخلق كمن يخلق، لكنه عكس تنبيهًا على أنهم بالإشراك بالله سبحانه وتعالى جعلوه من جنس المخلوقات العجزة شبيهًا بها)[1].

قوله (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (18) قال ابن عاشور (وهذا كلام جامع للتنبيه على وفرة نعم الله تعالى على الناس بحيث لا يستطيع عدها العادون، وإذا كانت كذلك فقد حصل التنبيه إلى كثرتها بمعرفة أصولها وما يحويها من العوالم، وفي هذا إيماء إلى الاستكثار من الشكر على مجمل النعم، وتعريض بفظاعة كفر من كفروا بهذا المنعم، وتغليظ التهديد لهم)[2].

1) تفسير البيضاوي ج3 ص 327
2) التحرير والتنوير ج13 ص 99

المبحث الثاني
مجادلة بالباطل وإكراه المستضعفين

قال تعالى {وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (19) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (20) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (21) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (22) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (23) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (24) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (25) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (26) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (27) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29) وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (30) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (31) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (32) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (34) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا

مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (35) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (37) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) }

ابتدأ هذا المقطع بمقدمة تدل على علم الله تعالى (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)، فهو المطلع – سبحانه– على ما تضمره القلوب من السرائر، فقد جعل الله في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب، والله سبحانه يعلم ما في القلوب، بيد أن قلوب المستكبرين منكرة للحق، ولذلك تجد حججهم في رفض دعوة الإسلام كثيرة، فتارة يقولون أساطير الأولين، ويضلون الناس بهذا القول ويصرفونهم عن سماع الذكر، فيحملون ذنوبهم وذنوب من يضلونهم، بل ويمكرون والله لا يمهلهم بل يعاقبهم بمكرهم ويهدم بنيانهم.

وتارة أخرى تجد فريق آخر من الكافرين يشاقون المؤمنين ويخاصمونهم ليحتجوا بخصامهم على عدم قبول دعوتهم، بل ويؤذون المؤمنين ويظلمونهم حتى يحملوهم على الكفر، والله تعالى لا يعذر من ألقى بنفسه إلى التهلكة و لم يفر بدينه منهم، ويلقي السلام على الذي أحسنوا و لم يرتضوا الدنية في دينهم.

ثم عادت الآيات لتبين حجج الظالمين، والأسباب التي أدت – في ظاهر الأمر- لتباطئهم في الاستجابة لرسول الله ﷺ، وهم يلقون بشبهة أخرى، وهي أنهم لا يرون الله ولا ملائكتهم، فليست هذه الشبهة منهم إلا من باب التهكم بقضية الإيمان بالغيب والاستهزاء بدين الله، وهم بذلك يرددون ما سبق أن قاله آبائهم من باب الاستهزاء والسخرية والمجادلة بالباطل، وليس من قبيل معرفة الحق.

وتكررت مجادلاتهم بالباطل حيث زعموا أن الله الذي هو قادر على كل شيء، فإنه قادر – كذلك – على أن يجبرهم على الإيمان، أما وأنه لم يجبرهم على ذلك، فذلك دليل على أنه سبحانه قد رضي بعبادتهم وإن شئت قلت كفرهم وشركهم، والحق سبحانه يبين له أن الله تعالى لم يرسل الرسل إلا لأجل هداية البشر، ولو أنهم كانوا على الحق لما أرسل لهم هؤلاء الرسل.

وقد ظل النبي ﷺ حريص على هداهم ولكنهم ظلوا يجادلونه حتى جاءوا له بشبهة جديدة وهي أن الله لما خلق الموت فإنه ليس بعد الموت بعث، وأكدوا على هذه الشبهة بأيمانهم، فأنزل الله في كتابه أن قدرته بين الكاف والنون، فإذا أراد شيئا يقول له (كُنْ فَيَكُونُ)، ولذلك استظهر آياته قدرته في الخلق فلماذا لا يسلمون بقدرته على البعث.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولما ذكر القرآن مجادلة المشركين لنبيهم، ناسب بعد ذلك أن يذكر المستضعفين الذين يتبعون النبي وفي ذات الوقت يسرون إسلامهم مخافة بطش الكافرين أو أنهم أعلنوا إسلامهم ولا يزالون يتحملون في سبيل الله أذاهم، وقد اتبعوا سبيل الهجرة من دار الكفر، وتركوا الدنيا خلفهم و لم يلتفتوا إليها، لتبشرهم الآيات بأن لهم في الدنيا حسنة، وأن أجرهم في الآخرة أكبر من ذلك.

قوله (وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) (19) إقرار بتوحيد الله في العلم بعد الإقرار بتوحيد الله في الخلق، فهو سبحانه عليم بما في الصدور مطلع على ما في قلوب العالمين، يقول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ)[1].

وقد ناسب ذكر هذه الآية الإشارة كذلك في هذا المقطع إلى اختلاط المسلمين مع الكافرين، وإسرار إسلامهم خوفا من بطش الكافرين، فتلك هي المرحلة التي تتحدث عنها السورة، والمسلمون لا يزالون مستضعفين في مكة، ولا يزال يمارس عليهم الكفار أشد أنواع العذاب.

قوله (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (20) تهوين لشأن من يعظمون من دون الله، وبيان عجزهم وأنهم غير قادرون على شيء، قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ)(الحج/73).

1) رواه مسلم ج12 ص 426 رقم 4650

فالذين يدعون فرعون ليستقوا بملكه أو قارون ليستقوا بماله أو هامان لينتفعوا بعلمه، يدعون من لا يملك شيئا لنفسه، ولن ينفعه بشيء يملكه، لأنه غير مالك على وجه التصرف، فالله وحده هو الموجد للشيء والمتصرف فيه، بينما هم لا يملكون إيجادا من عدم ولا قادرين على التصرف في شيء، فخابت دعوتهم أن لجأوا للمخلوق و لم يصمدوا إلى الخالق.

قوله (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)(21) تحقير لشأن معبوداتهم، فمصيرها جميعا إلى الموت والفناء، بل إنهم بعد الموت لا يدركون متى يبعثون، بل يظلون قابعين في قبورهم حتى يبعثون، فهم لا يملكون من أمر أنفسهم شيء، فكيف يُقصدون ليملكوا أمر غيرهم.

وقد نفى عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث، وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون أموات جاهلون بالبعث)[1].

قوله (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) إيضاح لمراد الله من توجيه القصد من العبادة له، فالله تعالى لا يقبل أن يشرك به، فهو إله واحد، فكيف يخلق ويعبد غيره، يرزق ويشكر سواه، وهو المتصرف في ملكه ولا يزالون يشركون به.

قوله (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) (22) يصف الله تعالى قلوب المنكرين للآخرة بأنهم مستكبرين، فالعلاقة بين إنكار الآخرة والاستكبار لازمة وحتمية، يقول الشعراوي أي: (أنهم لا يكتفُون بإنكار الآخرة فقط؛ بل يتعاظمون بدون وجه للعظمة)[2]، لأن منكر الآخرة يستكبر

---

1) تفسير النسفي ج2 ص155

2) تفسير الشعراوي ج1 ص 4872

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أن يحاسب على أعماله، فكأنه يتخذ من نفسه إلها، يَسأل غيره ويتأبى أن يُسأل هو، يحاسب الناس، ويظن أنه أكبر من أن يُحاسب، فلهذا لا يتقبل المستكبر عقيدة الإسلام، ولا يتقبل أن يكون في موضع محاسبة، قال سبحانه (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا) (النبأ/27)، فأضحى إنكارهم المستكبرين لعقيدة الإسلامية سجية، وقد اعتادوا عدم تبصر العواقب.

قال ابن تيمية (قَدْ يَعْتَرِضُ الْهَوَى – قَبْلَ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ – فَيَصُدُّهُ عَنْ النَّظَرِ فِيهِ فَلَا يَتَبَيَّنُ لَهُ الْحَقُّ، فَيَبْقَى فِي ظُلْمَةِ الْأَفْكَارِ وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ ذَلِكَ عَنْ كِبْرٍ يَمْنَعُهُ عَنْ أَنْ يَطْلُبَ الْحَقَّ)[1]، (وَقَدْ يَعْرِضُ الْهَوَى – بَعْدَ أَنْ عَرَفَ الْحَقَّ – فَيَجْحَدُهُ وَيُعْرِضُ عَنْهُ) [2].

قوله (لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)(23) قال رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ)[3]، قال المناوي (أي إلى طهارة قلوبكم التي هي محل التقوى وأوعية الجواهر وكنز المعارف)[4]، (وأعمالكم) فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا، فمعنى النظر الاختيار والرحمة والعطف لأنّ النظر في الشاهد دليل المحبة وتركه دليل البغض)[5]، قال الصنعاني أي (أن المجازاة والمحاسبة إنما تكون على ما في القلب دون الصورة الظاهرة والأعمال البارزة فإن عمدتها النيات ومحلها القلب وتقدم إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد)[6]

---

1) الفتاوى الكبرى ج9 ص 314
2) الفتاوى الكبرى ج5 ص 54
3) رواه مسلم ج12 ص 426 رقم 4650
4) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج1 ص 537
5) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج1 ص 537
6) سبل السلام ج4 ص 195

قال الشنقيطي لذلك (استعاذ موسى من المتصف بالكبر)[1]، كما في قوله (وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ) [غافر/27]، قال النووي (معنى الرواية أن الاعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته، ومعنى نظر الله هنا مجازاته ومحاسبته أي إنما يكون ذلك على ما في القلب دون الصور الظاهرة، ونظر الله رؤيته محيط بكل شئ، ومقصود الحديث أن الاعتبار في هذا كله بالقلب)[2].

قوله (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) تأكيد أن الكبر بطر الحق وغمط الناس، والله مطلع على قلوب المستكبرين فيطردها من رحمته كما في قوله كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِيهِمْ (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا)، يقول النبي ﷺ (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ) [3].

ذلك أن المستكبر لا يرى آيات الله بقلبه وإن رآه ببصره، كما في قوله (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج46)، قال ابن تيمية (وَإِنَّمَا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَقِّ فِي غَالِبِ الْحَالِ شُغْلُهُ بِغَيْرِهِ مِنْ فِتَنِ الدُّنْيَا وَمَطَالِبِ الْجَسَدِ وَشَهَوَاتِ النَّفْسِ فَهُوَ فِي هَذِهِ الْحَالِ كَالْعَيْنِ النَّاظِرَةِ إلَى وَجْهِ

1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج2 ص 10
2) شرح النووي على مسلم ج16 ص 121
3) رواه مسلم ج1 ص 247 رقم 131

الْأَرْضِ لَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَرَى مَعَ ذَلِكَ الْهِلَالَ أَوْ هُوَ يَمِيلُ إِلَيْهِ فَيَصُدُّهُ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ فَيَكُونُ كَالْعَيْنِ الَّتِي فِيهَا قَذًى لَا يُمْكِنُهَا رُؤْيَةَ الْأَشْيَاءِ) [1].

قوله (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (24) هذا الرد الصادر عنهم يدل على استكبارهم، حيث نسبوا كلام الله إلى القصص التي يقصها عليهم أهل الحكاية، وقد ملوا من سماعها، وهم يعلمون أن في قصص القرآن لعبرة، (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)(يوسف111)، ولكنهم -وكما وصفهم القرآن- لهم قلوب لا يعقلون بها، بل قلوبهم منكرة وهم مستكبرون.

قوله (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)(25) وذلك أنهم كانوا يحيطون بالناس ليصرفوهم عن الذكر، ويميلون عليهم ليغروهم بالمال، ويظلمون ضعفاءهم ليكرهوهم على الكفر، فيستخدمون تارة وسائل المكر والخداع، وتارة العذاب والإكراه لإضلال الناس عن الحق، ويصدونهم عن العلم عن الله.

1) مجموع الفتاوى ج9 ص 314

فعاقبهم الله يوم القيامة بحمل أوزار الذين أضلوهم، وذلك مثل قوله (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (العنكبوت/13)، فعن ابن عباس يَقُولُ (يحملون مع ذنوبهم ذنوب الذين يضلونهم بغير علم) [1].

قوله (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ) (26) عن زيد بن أسلم: أولُ جبار كان في الأرض نمرود، فبعث الله عليه بَعُوضة، فدخلت في منخرة، فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه، وكان جبارا أربعمائة سنة، فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه، ثم أماته الله. وهو الذي كان بنى صرحًا إلى السماء، وهو الذي قال الله: (فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ)[2].

قال ابن عاشور (ومن مجموع هذه الاستعارات تتركب الاستعارة التمثيلية. وهي تشبيه هيئة القوم الذين مكروا في المنعة فأخذهم الله بسرعة وأزال تلك العزة بهيئة قوم أقاموا بنيانا عظيما ذا دعائم وآووا

1) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 85
2) تفسير ابن كثير ج4 ص 566

إليه فاستأصله الله من قواعده فخر سقف البناء دفعة على أصحابه فهلكوا جميعا. فهذا من إبداع التمثيلية لأنها تنحل إلى عدة استعارات) [1].

يقول فاضل السامرائي (أما خرّ السقف من فوقهم يعني عليهم هم، خر عليهم السقف يعني انهدم ووقع، الخرّ الوقوع، من فوقهم يعني هم تحته يعني وقع فوق رؤوسهم) [2].

فإذا البناء الذي بنوه وأحكموه واعتمدوا على الاحتماء فيه، إذا هو مقبرهم التي تحتويهم، ومهلكتهم التي تأخذهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وهو الذي اتخذوه للحماية و لم يفكروا أن يأتيهم الخطر من جهته! إنه مشهد كامل للدمار والهلاك، وللسخرية من مكر الماكرين وتدبير المدبرين، الذين يقفون لدعوة الله، ويحسبون مكرهم لا يرد، وتدبيرهم لا يخيب، والله من ورائهم محيط!.

قوله (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ) انتقال من عرض صورة انتقام الله منهم في الحياة الدنيا إلى صورتهم والله يجزيهم في الآخرة ويبكتهم ويبخهم، وذلك بتوجيه سؤال تهكمي "أين شركائي الذين خاصمتموني فيهم"، والسؤال عنهم أي السؤال عمن كانوا يهابونهم ويجلونهم من دون الله، بل ويخاصمون المؤمنون لأجل إرضائهم، ومثله قوله (أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22).

أرضوا من نصبوهم من دون الله كآلهة حتى أنهم عادوا أهل الحق والقرآن أهل الإيمان أولياء الله، وشاقوهم، وخاصموهم، فلم يراعوا فيهم إلا ولا ذمة، لوم يراعوا فيهم نسبا ولا قرابة ولا حق الجيرة ولا

1) التحرير والتنوير ج13 ص 108
2) ا فاضل السامرائي: https://tadars.com/tdbr/eloquence/4035

الوطن، قال الجزائري أي (تخالفون المؤمنين فيهم بعبادتكم إياهم وجدالكم عنه، وتشاقون الله بمخالفتكم إياه بترك عبادته إياها) [1]، قال الزمخشري أي (تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم)، بمعنى: (تشاقونني) ؛ (لأنّ مشاقة المؤمنين كأنها مشاقة الله)[2].

ولما كان الدين عند الله الإسلام، فإن كل محاولة لإضلال الناس عن هذا الدين تعتبر شق لعصا الجماعة، فبالتأمل في الوصف الذي عاتبهم الله عليهم وأنهم كانوا "يشاقون" فهو لفظ يستعمل فيمن يشق شيئا صلبا ملتحما بصعوبة وبقوة شديدة، فهو يحتاج لجهد شاق لإنجاز فعل الشق جسم مادي، ولذلك يطلق الشق على الأرض أو العصا الخشبية، فيقال شق العصا أي أضعف قوتها بشقها، والأمة ينظر إليها وكأنها عصا واحدة، ولذلك فإن مجرد الشروع في شق وحدة الأمة معاقب عليه في شرع الله، يَقُولُ ﷺ (مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ) [3]أي يفرق جماعتكم كما تفرق العصا المشقوقة[4]، قال أَبو عبيد: وأَصْلُ العَصا الاجْتِماعُ والائْتِلافُ، (فشَقُّ عصا المُسْلِمين) يعني شَقُّوا اجْتماعَهُم وأُتلافَهُم، فالذي يشاقق الجماعة ويخرج عن كلمتهم الواحدة يحدث تفرقا لاجتماعهم ونُفرة بينهم بعد ائتلافهم، فيكون الاختلاف والتباغض والتعادي فكأنه شق العصا)[5].

---

1) أيسر التفاسير ج2 ص 296

2) الكشاف ج3 ص 348

3) رواه مسلم ج9 ص 396 رقم 3443

4) الديباج على مسلم للسيوطي ج4 ص 461، شرح النووي ج12 ص 242

5) أرشيف منتدى الفصيح: قالوا عن شق عصا الطاعة– المكتبة الشاملة الحديثة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله (قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ) (27) أي الذين ورثوا العلم عن الأنبياء، فهم الحاملون لواء الدعوة بعدهم، قال الزمخشري (هم الأنبياء والعلماء من أممهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاقونهم، يقولون ذلك شماتة بهم وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفًا لمن سمعه)[1].

والذين أوتوا العلم هم المشار إليهم في كل زمان، فهم الناجون من الفتنة كما ذكر القرآن في قصة فتنة قوم فرعون بقارون، قال سبحانه (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) (القصص/80)، هذا رغم أن قارون كان يدعي أنه على "علم" ولكن علمه لم يكن بالله وعن الله، فلم ينسب له شرف الانتساب للعلم.

والتعبير بلفظ "اليوم" في قوله (إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ) يدل على هوان أمر الدنيا وسرعة انقضاءها وكأنها ساعة، والساعة الثانية تكون في الآخرة، قال تعالى (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ) (الروم/55)، بذلك يستبين أن العلم الذي معهم هو العلم واليقين بالآخرة.

قوله (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) (29) هذه الآية نزلت في المستضعفين، الذين استكانة للظلم و لم يبدو شيئا من مظاهر المقاومة، فيعاتبهم الله على هذا الحال

1) الكشاف ج3 ص 348

لعلهم يستفيقون وينصروا النبي ﷺ ودعوته ويجهروا بالحق قبل أن يحاسبهم الله على هذا التقصير، فعن عكرمة: (نزلت هذه الآية بالمدينة في قوم أسلموا مكة و لم يهاجروا فأخرجهم قريش إلى بدر كرها فقتلوا ببدر)[1]، قال العلماء في التحول من دار الشرك إلى دار المهاجرين، قال ابن كثير (هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية حيث يقول تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) أي: (بترك الهجرة) [2].

وقد أجاز الشافعي (المقام لمن لا يخاف الفتنة في الإقامة بدار الشرك)، وفي هذا المعنى إذنه ﷺ، للعباس بن عبد المطلب، وغيره في الإقامة بمكة بعد إسلامهم إذا لم يخف الفتنة، فإذا خافوها، وقدروا على الهجرة فعليهم الهجرة، فإذا لم يهاجروا حتى ماتوا، فقد قال الله عز وجل فيهم (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)[3].

وقوله (فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ) هذا عند قبض الملائكة لأرواحهم، حيث يلقون عليهم السلام، ويعتذرون منهم أنهم لم يعملوا سوءا، هذا في ظنهم، ردا على سوء استقبال الملائكة لهم عند نزع أرواحهم بسبب إقامتهم بين ظهراني المشركين، فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ فَاعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ فَأَسْرَعَ فِيهِمْ الْقَتْلَ قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فقَالَ (أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ

1) المحرر الوجيز ج4 ص 163 الوجيز للواحدي ج1 ص 283
2) تفسير ابن كثير ج2ص389
3) رواه البيهقي ج7 ص 398 رقم 2818

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ) قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ ؟ قَالَ لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا)[1]، أي أنهما يعذبان في القبر بسبب الإقامة بين المشركين والاستكانة لهم حتى اضطروهم إلى الذهاب معهم لملاقاة المسلمين في القتال.

بل يجب أن يسكن بعيدا عنهم مسافة بحيث إذا أوقد أحدها نارا لا يراه الطرف الآخر، وذلك لأن ليسوا بأهل مسالمة وموادعة، أي أنهم لا يوادعون المسلمين على أن يتركوهم على دينهم بل هم مضطهدون لأهل الحق، فاتنيهم عن دينهم، ولذلك يجب التبرؤ منهم ومن الخضوع لأحكامهم وسلطانهم.

قوله (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا) (30) أي ما ينزل من القدر فيأخذون أرزاقهم أو ابتلاءهم، فإنهم يسلمون به، قال ابن عاشور (لما افتتحت صفة سيئات الكافرين وعواقبها بأنهم إذا قيل لهم: (مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ) [سورة النحل:24] قالوا (أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) [سورة النحل:24]، جاءت هنا مقابلة حالهم بحال حسنات المؤمنين وحسن عواقبها، فافتتح ذلك بمقابل ما افتتحت به قصة الكافرين، فجاء النظير بين القصتين في أبدع نظم)[2].

1) رواه أبو داود ج7 ص 237 رقم 2274 وصححه الألباني: صحيح أبي داود ج7 ص 397 رقم 2377
2) التحرير والتنوير ج13 ص 113

قال ابن عجيبة (فكل ما يترل بهم من قدر الله وقضائه، جلاليًا كان أو جماليًا، جعلوه خيرًا، وتلقوه بالرضا والتسليم)، يقولون: (إذا كنتَ أنتَ المُبْتَلِي فافعل ما شئت، لا يتضعضعون ولا يسأمون، ولا يشكون لأحد سوى محبوبهم؛ لأن الشكوى تنافي دعوى المحبة)[1]، فكلمة (خيرا) تدل على رضاء المؤمنين بقضاء الله الكوني وحكمه الشرعي على السواء، كما في قوله سبحانه (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)(الأحزاب/65) حقا عجبا لأمر المؤمن أمره كله خير إن أصابته نعمة شكر فكان خير له وإن أصابه ضر صبر فكان خيرا له.

قوله (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) فهو دعاء المؤمنين كما في قوله (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (البقرة/202)، وهو وعد الله للمستضعفين (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً)، وهو دعاء الأنبياء ومنهم إبراهيم قال (وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) (122).

والمقصود بحسنة الدنيا، ما قسمه الله للمؤمن من حظه من الدنيا (نحوُ الصحةِ والكفافِ والتوفيقِ للخير)[2]، وقال الحسن (الرِّزْقَ الطَّيِّبَ، وَالْعِلْمَ النَّافِعَ فِي الدُّنْيَا)[3]، وقال الثعلبي المراد بحسنة الدنيا (الأعمال

1) البحر المديد ج3 ص 258
2) تفسير أبي السعود ج3 ص 363
3) تفسير ابن أبي حاتم ج6 ص 209

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الصالحة)[1]، وأظنه هو المقصود، وقد أصابه التوفيق في ذلك، ذلك أن طاقة الإنسان لا تدرك عمل شيء إلا بتوفيق الله إياه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومن يوفقه الله للعمل الصالح فقد عسله، يقول النبي ﷺ (إذا أحب الله عبدا عسله قال: يا رسول الله و ما عسله ؟ قال: يوفق له عملا صالحا بين يدي أجله حتى يرضى عنه جيرانه ــ أو قال من حوله)[2]، (هو من عسل الطعام شَبّه ما رزقه الله من العمل الصالح الذى طاب به بالعسل الذى يُجْعَلُ فى الطعام فَيَحْلَوْ لى به ويطيب)[3]، أي أن عمله الصالح جعل سيرته بين الناس كالعسل في النقاء والصفاء دون شائبة، وفي الطعم واللذاذة عند ذكره.

قوله (وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) (30) استدراك حتى لا تكون الدنيا هم المؤمن، بل يكون ما يدخره الله له في الآخرة هو همه وشاغله، فالآخرة خير وأبقى، قال رسول الله ﷺ (مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)[4]، وكثير ما نلحظ من أحاديث رسول الله ﷺ أنه يعقد المقارنة بين عمل الآخرة وعمل الدنيا، فيجعل عمل الآخرة من عمل الدنيا، كما في قوله ﷺ (غَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)[5]، وقال ﷺ (رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) [6]، وعن أَبِي مَحْذُورَةَ يَقُولُ أَلْقَى عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَذَانَ حَرْفًا حَرْفًا... وَكَانَ يَقُولُ فِي الْفَجْرِ الصَّلَاةُ خَيْرٌ مِنْ

---

1) تفسير الثعلبي ج1 ص 923

2) رواه الحاكم ج1 ص 490 رقم 1258 صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 169 رقم 3358 السلسلة الصحيحة المجلدات 188/3رقم 1114

3) الزمخشري: الفائق في غريب الأثر والحديث ج2 ص 429

4) رواه البخاري ج11 ص 28 رقم 3011

5) رواه مسلم ج9 ص 463 رقم 3494

6) رواه مسلم ج4 ص 60 رقم 1193

النَّوْمِ)[1]، ولذلك امتدحت الآية دار المتقين بعدما جعل الخيرية للآخرة، قال الحسن (هي الدنيا لأن أهل التقوى يتزودون منها إلى الآخرة)[2]، أي أن المدح اشتمل على دار الدنيا التي يعمل فيها الصالحات، ودار الآخرة التي يحظى فيها بالجزاء، فأينما حل المؤمن في دار فهي نعم الدار حتى يرتحل إلى دار الآخرة.

قوله (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ) (31) إشارة إلى دار الآخرة التي ينعم فيها المؤمن بالجزاء، وعندما يدخلها يجد فيها الأنهار تجري من تحته كناية عن روعة المنظر

كما يجد فيها ما يشاء ويتمنى، ففي حديث آخر من يدخل الجنة قال رسول الله ﷺ (فَيُقَدِّمُهُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا قَامَ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ انْفَهَقَتْ لَهُ الْجَنَّةُ فَرَأَى مَا فِيهَا مِنْ الْحَبْرَةِ وَالسُّرُورِ فَيَسْكُتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَسْكُتَ ثُمَّ يَقُولُ أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ فَيَقُولُ اللَّهُ أَلَسْتَ قَدْ أَعْطَيْتَ عُهُودَكَ وَمَوَاثِيقَكَ أَنْ لَا تَسْأَلَ غَيْرَ مَا أُعْطِيتَ فَيَقُولُ وَيْلَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مَا أَغْدَرَكَ فَيَقُولُ أَيْ رَبِّ لَا أَكُونَنَّ أَشْقَى خَلْقِكَ فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللَّهُ مِنْهُ فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ قَالَ لَهُ ادْخُلْ الْجَنَّةَ فَإِذَا دَخَلَهَا قَالَ اللَّهُ لَهُ تَمَنَّهْ فَسَأَلَ رَبَّهُ وَتَمَنَّى حَتَّى إِنَّ اللَّهَ لَيُذَكِّرُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا حَتَّى انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ قَالَ اللَّهُ ذَلِكَ لَكَ وَمِثْلُهُ مَعَهُ)[3]، ففي الدنيا يشتهي ويتمنى، ولا يشاء إلا أن يشاء الله، أما في الآخرة فإن الله يعطيه ما يشاء، فضلا منه وتكرما، وليس عليه قيد، غير الاستكبار يترع منه، فلا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر، يقول سبحانه (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) (47)، وإطلاق الإرادة هو ما يحقق

1) رواه أبو داود ج2 ص 97 رقم 425 وصححه الألباني: صحيح أبي داود ج
2) تفسير الخازن ج4 ص 174، تفسير البغوي ج5 ص 17
3) رواه البخاري ج22 ص 447 رقم 6885

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لأهل الجنة السعادة، فمن كان مقيد الإرادة وإن كان في الجنات لا يشعر بالسعادة، ولذلك يطلق الله إرادة أهل التقوى في الآخرة جزاء صبرهم على ما قيدوا به شهواتهم ورغباتهم في الدنيا مرضاة لله تعالى، قال النبي ﷺ (الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ) [1]، قال النووي (معناه أن كل مؤمن مسجون ممنوع فى الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة فإذا مات استراح من هذا وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان، وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل فى الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد)[2].

قوله (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(32) أي ملائكة الموت حال قبض الروح، فعن محمد بن كعب القرظي قال (إذا استنفقت حياة المؤمن جاءه ملك الموت فقال السلام عليك يا ولي الله إن الله يقرأ عليك السلام قال: ثم قرأ هذه الآية)[3].

قوله (ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أي تبشره الملائكة بالجنة حال قبض روحه، وتذكره بما كان يعمل صالحا على وجه الإجمال، وذلك دليل على أن العمل الصالح هو سبب دخول الجنة، قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي عن ربه (يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا)[4].

---

1) رواه مسلم ج14 ص 205 رقم 5256
2) شرح النووي على مسلم ج18 ص 93
3) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج1 ص 361 رقم 402
4) رواه مسلم ج12 ص 455

قوله (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ) يعاتبهم القرآن على طريقتهم بأسلوب التهكم لتباطئهم عن الاستجابة لرسول الله ﷺ، واستمرارهم في العناد معه بأن يجعل لهم كل الغيبيات أمرا مشاهدا، إذ لو حصل ذلك لما كان ثمة محل للإيمان بالغيب، قال تعالى (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ) (الأنعام/8)، وعندئذ يأخذهم الله بكفرهم ولا يمهلهم.

قوله (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (33) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)(34) وكذلك يفعل كل مستكبر ومستهزئ بدعوة الإسلام، فطلباتهم تلك في حقيقتها استهزاء بدين الله، وذلك حين يطلبون رؤية ربهم أو ملائكته، فهم يستصغرون الإله لظنهم أن يجوز في حقه أن يكون محدودا في أعينهم، بل إنهم ليستصغرون قدرته، وهم أعجز عن إدراك حجم ملائكته، يقول النبي ﷺ (أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ)[1]، أي بما يقدر بمسافة 95,155,200 كيلومتر (خمسة وتسعين مليون ومائة خمسة وخمسون ألف ومئتي) كيلومتر.

قوله (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) قال ابن جزي (قالوا ذلك على وجه المجادلة والمخاصمة والاحتجاج على صحة فعلهم)[2]، وكأنهم أزالوا كل تاريخهم في الشرك بالله بل وتاريخ آبائهم معهم، وطمسوا كل الأدلة على شركهم، بل وافترائهم على الله، وتحريم ما أحل الله، بإرجاع سبب شركهم لمشيئة الله، كل ذلك ظنا منهم أنه يخيل

1) رواه أبو داود ج12 ص 335 رقم 4102 صحيح وضعيف سنن أبي داود ج10 ص 227 رقم 4727
2) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 832

www.alukah.net
شبكة الألوكة

على المؤمنين أصحاب الدعوة، فهم يحتجون بالقدر، وهم أجهل الناس به، وذلك كقولهم (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (20)، وقولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) [الأنعام:148].

قال ابن كثير (فمشيئته تعالى الشرعية منتفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهي تمكينهم من ذلك قدرا، فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة)[1].

قوله (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)(35) والله تعالى قبل أن يرد علي شبهتهم التي أثاروها يبين أنهم ليسوا أول من أثاروا هذه الشبهة بل هو دأب المشركين على مدار التاريخ ، حيث يحتجون بالقدر في غير موضعه، وأظهر رد على هذه الشبهة هو إرسال الرسل، إذ لو كان الأمر كما زعموا، فلماذا يرسل الله إليهم الرسل، إلا أن يكون سبحانه لم يرض لهم الشرك، إنه سبحانه يرسلهم ليقوموا بمهمة البلاغ عن الله، بحيث يستبين للناس سبيل الحق من الباطل، ولذلك قال سبحانه (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) أي أن الله أوجب على نفسه أن يبين للناس سبيل الهدى حتى يهتدي من شاء ذلك، وعلى السبيل نبي ورسول وقرآن هادي إلى الله، وعلى الناس اتباع أنبيائهم ورسلهم ومن يبلغونهم عن الله ويرشدونهم للحق.

1) تفسير ابن كثير ج4 ص 570

شبكة الألوكة - قسم الكتب

يقول الله تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) يؤكد الله تعالى على وظيفة الرسل بشيء من التفصيل، ليستبين للناس فساد شبهتهم، فما من رسول بعثه الله إلا دعا قومه لعبادة الله، واجتناب عبادة غيره، فكل ما عُبد من دون الله تعالى فهو "طاغوت"، قال ابن تيمية (الطاغوت من "فعلوت"، و"الطغيان" مجاوزة الحد وهو الظلم والبغى) [1].

قال ابن القيم (والطاغوت اسم لكل ما عبدوه من دون الله فكل مشرك إلهه طاغوته)[2]، وقال ابن القيم (والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته) [3]، ولهذا سمى فرعون طاغوتا، وكذلك النمرود والشيطان...الخ.

يقول الشيخ علي بن نايف (إنَّ عامة المجتمعات التي لا تؤمن بالله قد وضعت بينها وبين الاسلام حواجز منيعة، فلا يمكن لها أن ترى الحق حتى تهدم هذه السدود، فالمسلمون لما فتحوا البلاد وأزاحوا الطاغوت بكل أشكاله، هنا دخل الناس في دين الله أفواجا في الشام و العراق ومصر وإيران والهند والاندلس.

---

1) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، مجموع الفتاوى ج28 ص 201

2) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 319

3) إعلام الموقعين ج1 ص 50

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأصحاب الدعوة – اليوم- يواجهون أنظمة متعددة تحت أكثر من مسمى (الديمقراطية بمعنى الحرية المطلقة للشعب – الرأسمالية بمعنى تضخم رأس المال ليحتكر السوق – الشيوعية بمعنى تضخيم ملكية الدولة على حساب الأفراد – البوذية وعبادة الطبيعة....الخ)، ونحن مكلفون بإزالة كل هذه السدود والموانع حتى يخرج الناس إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا (الحانة والمكتب والجنس) إلى سعة الدنيا والاخرة)[1].

من هذا نفهم أن إشارة القرآن إلى "الطاغوت" تعني بوضوح إكراه الناس على الكفر و وضع العديد من الحواجز دون فهمهم لهذا الدين، ولذلك نزل قوله سبحانه في المستضعفين والمكرهين على الكفر (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) (النحل/105).

قوله (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ..) (36) تأكيد على أن الهداية بتوفيق من الله ونعمة، وهي خير النعم، وكذلك "الضلالة" فهي حق على من ضل ولا ظلم، فقد جاء التعبير بـ "حقت عليه الضلالة" وليس" أضله الله"؛ لأن الذي ضل إنما ضل بنفسه فاستحق الضلالة ووجبت عليه ولزمته، أما الله فإنه لا يرضى لعباده الكفر)[2]أي لا يرضاه شرعا كما في قوله (ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم)(الزمر:٧)، وإن وقع كونا فهذا بمشيئته لمن حقت عليه الضلالة

1) المفصل في شرح آية لا إكراه في الدين ج3 ص 168 مع بعض التعديل

2) سامي القدومي: كتاب التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني ص 36 لمؤلفه: سامي وديع عبد الفتاح شحادة القدومي الناشر: دار الوضاح، الأردن – عمان

وقد جاء التعبير بـــ "حقت عليه الضلالة" وليس "أضله الله"؛ لأن الذي ضل إنما ضل بنفسه فاستحق الضلالة ووجبت عليه ولزمته، أما الله فلا يرضى لعباده الكفر) فذلك يعني أنه لا يرضاه -شرعا -كما في قوله (ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضيه لكم)(الزمر:7)، أما إن وقع الكفر – كونا – فتلـــك هي مشيئته فيمن حقت عليه الضلالة.

فالله هدى الناس للنجدين، ليستبصروا أي الطريقين أحق بالاتباع، فمن أراد الهداية يسره الله للهداية، ومن أراد الضلال أضله الله، وحقت عليه الضلالة، (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَـــنْ شَـــاءَ فَلْيَكْفُرْ) (الكهف/29).

فلا يصح القول بأن الله ييسر الهداية، ونعترف بذلك، وفي ذلك الوقت نقول أنه لا يريد الهداية، وإلا كان ذلك عبثا والله منزه عن العبث.

قوله (فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (36) ذلك أن شبهتهم لو صحت – وهي قولهم (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا..)- لما كان ثمة وجه لمعاقبة المكذبين بدعوة النبي ﷺ، ولكنهم لما عوقبوا استبان بذلك أن الله عاقبهم لتكذيبهم، وأنه لا يرضى لعباده الكفـــر كما زعموا ذلك وافتروا على الله هذه الشبهة، وقد دحضها الله بإنزال عقوبته في الدنيا بالمكذبين، فكان ذلك إثبات واضح لعدم رضاه كفرهم، وإلا لما عاقبهم، ولذلك قال تعالى (وَإِنْ مِنْ قَرْيَـــةٍ إِلَّـــا نَحْـــنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا) (الإسراء/58).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (37) لا يزال الذين كفروا يجادلون النبي ﷺ لا لأجل معرفة الحق، وإنما استهلاكا للوقت، واستهزاءا بأمره، والرسول صابر عليهم حريص على هداهم، والله تعالى لا يعاتبه على حرصه، وإنما يبين له أن الأخذ بالأسباب وإن كان مطلوب شرعا، إلا أن النتائج ليس على المرء تحصيلها، فهي خارجة عن قدرته، والله تعالى علق الهداية على من يريد الهداية، وهو سبحانه ولأنه منزه عن العبث، لا يهدي من يضل، قال ابن عاشور (والاستفهام لإنكار أن يكون حرص الرسول ﷺ على هداهم ناجعا فيهم إذا كان الله علم مسبقا ضلالهم)[1]، ومن ذلك قول النبي ﷺ (مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ) [2]، وقوله (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا) (88)، فاستبان بذلك أن من يضله الله يعني من لا يهديه لأنه حقت عليه الضلالة، فمن العبث أن يهدي الله من لم يشأ الهداية، والله منزه عن العبث.

قوله (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)(38) تلك من جملة مجادلتهم للنبي ﷺ حتى أعيوه، بأن نفوا عن الله تعالى قدرته على البعث، بل وقبل ذلك نفوا الحكمة من الخلق، قال تعالى (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) (المؤمنون116).

1) التحرير والتنوير ج25 ص 257
2) رواه مسلم ج4 ص 359 رقم 1435

قوله (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) نفي إدراك أكثر الناس حقيقة البعث والإيمان بها، أي: لا يعلمون أن الله قادر على البعث، إذ لو آمنوا بالبعث لما كان حالهم في الشكر على ما وصفهم الله به في قوله (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) (النمل/73).

قوله (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ)(39) أي أنه سبحانه حين يبعثهم يستبين لهم صدق الأنبياء والمرسلين، وكذب الكفار والمنافقين (وقالوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ...) [السجدة: 10]، وقال: (وقالوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) [الإسراء: 49]، ولكن بعدما يغلق باب العمل، ويكونون في دار الجزاء.

قوله (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)(40) فهم لا يعلمون أن ذلك يسير على الله.. قال تعالى (مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ..) [لقمان: 28].

قوله (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (42) عن قتادة في قوله: (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا) قال: (هؤلاء أصحاب محمد، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة، ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين)[1]، وقال ابن كثير (ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مُهاجرة الحبشة الذي اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم، ومن

1) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 90، الدر المنثور ج6 ص 140

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أشرافهم: عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب، ابن عم الرسول)[1]،يقصد بطريق الإيماء لمن ضيق عليه، يقول النبي ﷺ (البلاد بلاد الله والعباد عباد الله)[2].

وقد نزل التصريح بالهجرة في قوله تعالى (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56)..إلى قوله (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59)، قال ابن كثير (هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين.. ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة، ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا هناك خير المترلين "أصحمة النجاشي" ملك الحبشة، آواهم وأيدهم بنصره، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة)[3].

قوله (مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) قال مقاتل يعنى (من بعد ما عذبوا على الإيمان بمكة، نزلت فى خمسة نفر: عمار بن ياسر مولى أبى حذيفة بن المغيرة المخزومى، وبلال بن أبى رباح المؤذن، وصهيب بن سنان مولى عبد الله بن جدعان بن النمر بن قاسط، وخباب بن الأرت، وهو عبد الله بن سعد بن خزيمة بن كعب مولى لأم أنما امرأة الأخنس بن شريق) [4]، بيد أن هؤلاء الخمس لم يثبت أن أحدا منهم هاجر إلى الحبشة،

---

1) تفسير ابن كثير ج4 ص 572
2) رواه الدارقطني في سننه ج4 ص 217 رقم 50 وصححه الألباني: الجامع الصغير 1ص757 إرواء الغليل360/5
3) تفسير ابن كثير ج6 ص 290
4 تفسير مقاتل ج2 ص 221

غير "عمار بن ياسر" شك المؤرخون فيه هل ضمن المهاجرين أم لا، ولعل ما يقصده مقاتل أنهم هـــؤلاء الذين ظلموا و لم يهاجروا، وصبروا على ظلمهم، بينهما آخرون هاجروا وفروا بدينهم.

إذن هجرة الصحابة للحبشة تأكيد على ظلم قريش لهم، ذكر ابن كثير أنهم كانوا أحد عشر رجلًـــا وأربع نسوة وهم في الهجرة الأولى، وقيل هم: -

1) عثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت محمد
2) أبو حذيفة بن عتبة، وامرأته سهلة بنت سهيل
3) الزبير بن العوام
4) مصعب بن عمير
5) عبد الرحمن بن عوف
6) أبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية
7) عثمان بن مظعون
8) عامر بن ربيعة العنزي، وامرأته ليلى بنت أبي حثمة
9) أبو سبرة بن أبي رهم
10) حاطب بن عمرو
11) سهيل بن بيضاء
12) عبد الله بن مسعود

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعن عروة قال: وتسمية الذين خرجوا إلى أرض الحبشة للمرة الأولى قبل خروج جعفر وأصحابه: عثمان بن مظعون وعثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ وعبد الله بن مسعود وعبد الرحمن بن عوف وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بن سهيل بن عمرو وولدت له بأرض الحبشة محمد بن أبي حذيفة و الزبير بن العوام و مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار و عامر بن ربيعة و أبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة وأبو سبرة بن أبي رهم ومعه أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو وسهيل بن بيضاء، قال: ثم رجع هؤلاء الذين ذهبوا المرة الأولى قبل جعفر بن أبي طالب وأصحابه) [1].

وذلك حين سجد المشركون لما نزل آخر سورة النجم، فانتشر الخبر أنهم أسلموا وبلغ المسلمون في الحبشة أن أهل مكة قد أسلموا، فقرروا العودة إلى مكة في شهر شوال من نفس السنة [2] حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلًا، فمنهم من رجع إلى الحبشة، ومنهم من دخل مكة مستخفيًا أو في جوار رجل من قريش.

وبعد عودة بعض المهاجرين إلى مكة، أذن لهم النبي في الخروج إلى الحبشة مرة ثانية، فخرجوا، وكان عددهم في المرة الثانية (ثلاثة وثمانين) رجلًا و(تسع عشرة) امرأة، وقيل: (ثماني عشرة) امرأة، وقال الطبري: كانوا (اثنين وثمانين) رجلًا سوى نسائهم وأبنائهم، وشك في عمار بن ياسر هل كان فيهم وبه تتكمل العدة (ثلاثة وثمانين)، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب فكان هو المقدم عليهم، والمترجم عنهم عند النجاشي.

---

1) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج9 ص 34 رقم 8333، سيرة بان اسحق ج1 ص 156 سيرة بن كثير 4/2، السيرة النبوية لابن حبان ج1 ص 69 سيرة ابن هشام ج1 ص 322

2) الطبقات (1/ 206) من طريق الواقدي بدون إسناد، وابن هشام (2/ 5) بأسانيد ضعيفة.

ذكر ابن إسحاق أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلًا وتسع عشرة امرأة ذكر منهم [1]

الحارث بن الحارث بن قيس بن عدي

معمر بن الحارث بن قيس بن عدي

السائب بن الحارث بن قيس بن عدي

بشر بن الحارث بن قيس بن عدي

سعيد بن الحارث بن قيس بن عدي

سعيد بن قيس بن عدي

عمير بن رئاب بن حذيفة بن مهشم بن سعيد بن سهم

معمر بن عبد الله العدوي

عروة بن عبد العزى

عمرو بن عثمان بن عمرو بن كعب

شماس بن عثمان

هبار بن سفيان بن عبد الأسد المخزومي

عبد الله بن سفيان

هشام بن أبي حذيفة بن المغيرة

سلمة بن هشام بن المغيرة

عياش بن أبي ربيعة بن المغيرة

معتب بن عوف بن عامر

قدامة بن مظعون

عبد الله بن مظعون

السائب بن عثمان بن مظعون

حاطب بن الحارث بن معمر، ومعه امرأته فاطمة بنت المجلل

جعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس

عمرو بن سعيد بن العاص، وامرأته فاطمة بنت صفوان بن أمية بن محرث

خالد بن سعيد بن العاص، وامرأته أمينة بنت خلف

عثمان بن مظعون

عبد الله بن جحش بن رئاب

عبيد الله بن جحش، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان

قيس بن عبد الله من بني أسد بن خزيمة، وامرأته بركة بنت يسار

معيقيب بن أبي فاطمة

أبو موسى الأشعري

---

1) المرجع السابق ص205

عدي بن نضلة بن عبد العزى
النعمان بن عدي بن نضلة
عبد الله بن مخرمة
عبد الله بن سهيل بن عمرو
سليط بن عمرو
السكران بن عمرو،وامرأته حسنة
وامرأته سودة بنت زمعة
مالك بن زمعة، وامرأته عمرة بنت السعدى
أبو حاطب بن عمرو العامري
أبو عبيدة بن الجراح
سهيل بن بيضاء
عمرو بن أبي سرح
عياض بن زهير بن أبي

محمد بن حاطب بن الحارث بن معمر
الحارث بن حاطب بن الحارث بن معمر
الحارث بن معمر
خطاب بن الحارث بن معمر،كثير بن عبد بن قصي وامرأته فكيهة بنت يسار
سفيان بن معمر بن حبيب، وامرأته حسنة
جابر بن سفيان بن معمر
جنادة بن سفيان بن معمر
شرحبيل بن حسنة
عثمان بن ربيعة بن أهبان بن وهب بن حذافة بن جمح
خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي
عبد الله بن الحارث بن قيس بن عبد الله بن عدي السهمي

عتبة بن غزوان
يزيد بن زمعة بن الأسود
عمرو بن أمية بن الحارث بن أسد
طليب بن عمير بن وهب بن أبي
سويبط بن سعد بن حرملة
جهم بن قيس العبدوي، وامرأته أم حرملة بنت عبد الأسود
عمرو بن جهم
خزيمة بن جهم
أبو الروم بن عمير
فراس بن النضر بن الحارث بن كلدة
عامر بن أبي وقاص
المطلب بن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف
عبد الله بن مسعود

شداد بن ربيعة هشام بن العاص بن وائل بن عتبة بن مسعود

عمرو بن الحارث بن زهير بنسعيد المقداد بن الأسود

أبي شداد بن ربيعة قيس بن حذافة بن قيس بـــن الحارث بن خالد بن صخر التيمي،

عثمان بن عبد غنم بـــنعدي وامرأته ريطة بنت الحارث

زهير عبد الله بن حذافة

سعيد بن عبد قيس بـــن أبو قيس بن الحارث بن قيس

لقيط بن عدي

الحارث بن عبد قيس بـــن

لقيط

قوله (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) (41) بوأ الله المؤمنين المدينة لتكون موطنا لهم بعدما لم يجدوا مأوى آمنا في مكة، فاستوطنوا المدينة ونصرهم الأنصار، فأضحى لهم أخوة يؤازرونهم في الدين، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ لَمَّا قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ فَقَالَ لَهُ هَلُمَّ أُقَاسِـــمُكَ مَالِي نِصْفَيْنِ وَلِيَ امْرَأَتَانِ فَأُطَلِّقُ إِحْدَاهُمَا فَإِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا فَتَزَوَّجْهَا فَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِـــي أَهْلِـــكَ وَمَالِكَ دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ فَدَلُّوهُ عَلَى السُّوقِ فَمَا رَجَعَ يَوْمَئِذٍ إِلَّا وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنْ أَقِطٍ وَسَمْنٍ قَدْ اسْتَفْضَلَهُ فَرَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ وَعَلَيْهِ وَضَرٌ مِنْ صُفْرَةٍ فَقَالَ مَهْيَمْ قَالَ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ قَالَ فَمَـــا أَصْدَقْتَهَا قَالَ نَوَاةً قَالَ حُمَيْدٌ أَوْ قَالَ وَزْنَ نَوَاةٍ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ)[1].

1) رواه الترمذي ج7 ص 176 رقم 1856 وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن الترمذي ج4 ص 433

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (41) التفات إلى ما عند الله في الآخرة حتى لا يصير همهم هو النجاة من المشركين وأن ينالوا نصيبا من الدنيا، فهذا هو مصعب بن عمير فتح الله عليه يديه المدينة، وكان في وفاته عبرة، روي أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ بِطَعَامٍ وَكَانَ صَائِمًا فَقَالَ قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي كُفِّنَ فِي بُرْدَةٍ إِنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ وَإِنْ غُطِّيَ رِجْلَاهُ بَدَا رَأْسُهُ وَأُرَاهُ قَالَ وَقُتِلَ حَمْزَةُ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنْ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ أَوْ قَالَ أُعْطِينَا مِنْ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ)[1] وفي رواية (لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عُجِّلَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي)[2].

قوله (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) قال الرازي والمعنى: (أنهم صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله، وعلى المجاهدة وبذل الأموال والأنفس في سبيل الله، وبالجملة فقد ذكر فيه الصبر والتوكل، أما "الصبر" فللسعي في قهر النفس، وأما "التوكل" فللانقطاع بالكلية من الخلق والتوجه بالكلية إلى الحق، فالأول: هو مبدأ السلوك إلى الله تعالى، والثاني: آخر هذا الطريق ونهايته)[3]، ونقل القرطبي عن أهل التحقيق (خيار الخلق من إذا نابه أمر "صبر"، وإذا عجز عن أمر توكل)[4].

1) رواه البخاري ج5 ص 17 رقم 1196
2) رواه البخاري ج5 ص 15 رقم 1195
3) تفسير الرازي ج9 ص 391
4) تفسير القرطبي ج10 ص 107

قال القشيري ("الصبر" حَبْسُ النَّفْسِ على فِطامها، وتجرُّعُ كاساتِ التقدير من غـــير تعبـــيس، وأولُ الصبرِ تصبُّرٌ بتكلفٍ، ثم صبرٌ بسهولة، ثم اصطبارٌ وهو ممزوج بالراحة، ثم تحقُّقٌ بوصف الرضا ؛ فيصـــير العبدُ فيه محمولًا بعد أن كان مُتَحَمِّلًا)، وقال (و"التوكلُ" انتظارٌ مع استبشار، والتوكلُ سكونُ السِّرِّ إلى الله، التوكلُ استقلالٌ بحقيقة التوكل ؛ فلا تتبرَّم في الخلوة بانقطاع الأغيار عنك، فالتوكل إعراضُ القلب عن غير الرَّب)[1].

ولنجد تأثير هذه الفترة على النبي ﷺ وأصحابه حتى بعدما استشعر المسلمون أن لهم دولة بعد الهجرة للمدينة، وقد نجوا من قريش وبطشها، إلا أنه لا يزال لهم أتباع في مكة أسلموا مؤخرا و لم يهاجروا مـــع النبي ﷺ وأصحابه، فلا يزالون عالقين مع المشركين، ولما خرج النبي ﷺ لمكة قاصدا العمـــرة، ثم صـــالح أهلها لم يتمكن من الظفر بأتباعه في مكة، ومن هاجر منهم رده رسول الله ﷺ إليهم نتيجة للصلح الذي بينهما، روي أن رَسُول اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ يُرِيدُ زِيَارَةَ الْبَيْتِ لَا يُرِيدُ قِتَالًا وَسَاقَ مَعَـــهُ الْهَـــدْيَ سَبْعِينَ بَدَنَةً وَكَانَ النَّاسُ سَبْعَ مِائَةِ رَجُلٍ فَكَانَتْ كُلُّ بَدَنَةٍ عَنْ عَشَرَةٍ قَالَ.. فَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَكْتُـــبُ الْكِتَابَ – صلح الحديبية – إِذْ جَاءَهُ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو فِي الْحَدِيدِ قَدْ انْفَلَتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَرَجُوا وَهُمْ لَا يَشُكُّونَ فِي الْفَتْحِ لِرُؤْيَا رَآهَا رَسُولُ اللَّـــهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَوْا مَا رَأَوْا مِنْ الصُّلْحِ وَالرُّجُوعِ وَمَا تَحَمَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ دَخَلَ النَّاسَ مِنْ ذَلِكَ أَمْـــرٌ عَظِيمٌ حَتَّى كَادُوا أَنْ يَهْلَكُوا فَلَمَّا رَأَى سُهَيْلٌ أَبَا جَنْدَلٍ قَامَ إِلَيْهِ فَضَرَبَ وَجْهَهُ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ قَدْ لُجَّتْ الْقَضِيَّةُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَ هَذَا قَالَ صَدَقْتَ فَقَامَ إِلَيْهِ فَأَخَذَ بِتَلْبِيبِهِ قَالَ وَصَرَخَ أَبُو جَنْدَلٍ بِـــأَعْلَى

1) تفسير القشيري ج6 ص 124

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صَوْتِهِ يَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ أَتَرُدُّونَنِي إِلَى أَهْلِ الشِّرْكِ فَيَفْتِنُونِي فِي دِينِي قَالَ فَزَادَ النَّاسُ شَرًّا إِلَى مَا بِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا وَإِنَّا لَنْ نَغْدِرَ بِهِمْ قَالَ فَوَثَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَعَ أَبِي جَنْدَلٍ فَجَعَلَ يَمْشِي إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَقُولُ اصْبِرْ أَبَا جَنْدَلٍ فَإِنَّمَا هُمْ الْمُشْرِكُونَ وَإِنَّمَا دَمُ أَحَدِهِمْ دَمُ كَلْبٍ قَالَ وَيُدْنِي قَائِمَ السَّيْفِ مِنْهُ قَالَ يَقُولُ رَجَوْتُ أَنْ يَأْخُذَ السَّيْفَ فَيَضْرِبَ بِهِ أَبَاهُ قَالَ فَضَنَّ الرَّجُلُ بِأَبِيهِ وَنَفَذَتْ الْقَضِيَّةُ فَلَمَّا فَرَغَا مِنْ الْكِتَابِ)[1].

1) رواه أحمد ج38 ص 377 رقم 18152

المبحث الثالث

غاية الرسل صناعة متفكرين في توحيد الكون لله

عُرِف الله عز وجل من خلال آياته الكونية ونعمه الظاهرة، والله سبحانه أرسل الرسل لإرشاد الناس عليه من خلال هذه الآيات، فجاءوا بالبينات وبالكتب ليدلوا الناس على الله ثم المنهج الصحيح لعبادتـــه، ولذلك خرج لنا جيل من الصحابة تميز عن غيره من الأجيال التي بعده بالقدرة على التفكر في خلـــق الله وآياته سبحانه فصنعوا بذلك مجدا لم يصنعه جيل بعدهم.

لكن بعض الناس يمكرون ليصدوا عن سبيل الله، ولو أنهم تفكروا في خلق الله، لوجدوا أن ظلالهـــم تسجد لله ولا تخرج عن أمره، فالكون كله يعلن توحيده لله، والشرع كله يدعو للتوحيد، وما نطق بـــه الأنبياء هو الدعوة للتوحيد، أليس الذي له ما في السماوات والأرض حري بأن يعبد ولا يشرك به، أليس الذي بيده النعم حري بأن لا يعبد غيره.

ولذلك تضرب الآية المثال بانقلاب حال الإنسان عندما يتلهى بالنعم وينسى شكر ربه، وكيف أنه يتذكر فضل ربه عليه حينما يمسه الضر فيرفع يده ويسأل ربه، وهو عالم أن الأسباب لا تنفعه، وهـــو في هذا الضيق، فإذا ما فرج الله عليه سرعان ما يعود لشركه فينسب الفضل لهذه الأسباب بعد أن أزال الله عنه ما به من ضر، فمثل من كان على هذا الحال من الشرك يرسلهم —بعد ذلك – إلى حيث يمتعون حتى إذا أخذهم بظلمهم عندئذ يُقِرّون بنعمة الله وفضله، ولكن بعد أن قامت عليهم الحجة وفات أوان هـــذا الإقرار.

قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (44) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (47) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (48) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (50) وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (51) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (52) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (53) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (54) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (55)}

قوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) ذلك لأن الإمامة في الرجال، وليست في النساء، فتكون دعوة النبي حجة على الرجال والنساء على وجه سواء، بينما دعوة النساء حجة على النساء وحدهن، لعدم اتباع الرجال النساء، واتباع النساء الرجال، فالرسل كلهم رجال، أما النبوة فثمة خلاف في نبوة مريم ابنة عمران، والله أعلم، وهكذا تشير آيات القرآن إلى اختيار الله تعالى خير البشر ليكون رسولا بالوحي للمنذرين، فيقطع حجج الظالمين في الطعن في الرسول وقدرته على تحمل عبء الدعوة، لما

تتطلبه القيادة من قوة في العلم والجسم، كما أشار لذلك قوله سبحانه (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (247).

وفي المقابل نجد الذين لا يؤمنون بالله يعبدون الأنثى، تأمل قوله سبحانه (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا) (النساء/117)، كما نجد أرباب المال والسلطان والجاه كلهم يسعون خلف المرأة، فيتقربون إليها بالمال، ويعطونها السلطة والجاه، وينفذون أوامرها لإرضائها، حتى أن فرعون رغم أنه كان يقتل الأبناء ويستحيي النساء رضخ لرغبة زوجته فترك موسى وهو رضيع و لم يقتله لما قالت له (لا تقتلوه عسي أن ينفعنا أو نتخذه ولدا)، وهو من هو في الإفساد والضلال، ثم كان موسى –بعد ذلك–سبب هلاكه.

كما أن الاحتجاج بنبوة الرجال وإرسالهم بالوحي دليل على أن الله تعالى لم يجعل للكافرين عذرا ذكورا كانوا أم إناثا، فالنبي هو الذي يحمل هم الدعوة ليل نهار حتى يبلغها، كما قال نوح (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا) (5) فليس بسائغ أن تخرج النساء للدعوة بالليل، بل هو عمل الرجال، وقد ورد في السنة أن النبي ﷺ كان يخصص يوما للاجتماع بالنساء ليعلمهن دينهن، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَتْ النِّسَاءُ لِلنَّبِيِّ ﷺ غَلَبَنَا عَلَيْكَ الرِّجَالُ فَاجْعَلْ لَنَا يَوْمًا مِنْ نَفْسِكَ فَوَعَدَهُنَّ يَوْمًا لَقِيَهُنَّ فِيهِ فَوَعَظَهُنَّ وَأَمَرَهُنَّ فَكَانَ فِيمَا قَالَ لَهُنَّ مَا مِنْكُنَّ امْرَأَةٌ تُقَدِّمُ ثَلَاثَةً مِنْ وَلَدِهَا إِلَّا كَانَ لَهَا حِجَابًا مِنْ النَّارِ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وَاثْنَتَيْنِ فَقَالَ وَاثْنَتَيْنِ)[1]، فضلا عن أنه ﷺ كثير ما كان ينتدب عائشة لتروي عنه أحاديثه لاسيما التي تخص النساء، فكان النساء يسألن عائشة عن ذلك.

قوله (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (43)(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) بينت الآية المقصود بأهل الذكر التي أحال عليهم القرآن السؤال عن الحق ودين الله، بأنهم هم العالمون بالبينات والزبر، أي عالمون بآيات الله المستنبطين منها الأدلة على وحدانيته سبحانه بالتفكر والتذكر، وعالمون بالكتب المترلة (الزبر) سميت زبرا لأنها مكتوبة، فهم الناظرون في الكون المتأملون فيه، والقارئون لكتب الله تعالى المترلة الدارسون لها وما فيها من أحكام تكليفية، وبذلك يزول الإشكال عن التعريف بهم، فمن اتصف بتلك الصفات هو من" أهل الذكر"، ومن لم يتصف بها فليس منهم، فالمعنى أن الذي يريد أن يعرف الحق يتتبعه ويتقصص أثره، ومن آثار الحق أهله، فهم الذين يدلون عليه.

قال رسول الله ﷺ (إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنْ النَّاسِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ قَالَ هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ)[2]

قال الإمام ابن الجزري رحمه الله:

لذاك كان حاملو القرآن **** أشراف الأمة أولى الإحسان

و إنهم في الناس أهل الله **** و إن ربنا بهم يباهي[3]

1) رواه البخاري ج1 ص 178 رقم 99
2) رواه ابن ماجة ج1 ص 250 رقم 211
3) كن من أهل القرآن أمير بن محمد المدري ج1 ص 6 من اليمن عمران

قال ابن تيمية (فَهَؤُلَاءِ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَخَالِقُهُ، وَأَنَّ الْخَالِقَ سُبْحَانَهُ مُبَايِنٌ لِلْمَخْلُوقِ، لَيْسَ هُوَ حَالًّا فِيهِ وَلَا مُتَّحِدًا بِهِ، وَلَا وُجُودُهُ وُجُودَهُ)[1]، جاء في الشرح قَوْله (هُمْ أَهْل الْقُرْآن) أَيْ حَفَظَة الْقُرْآن يُقْرَأ أَنَاءَ اللَّيْل وَأَطْرَاف النَّهَار الْعَامِلُونَ بِهِ، قَوْله (أَهْل اللَّه) بِتَقْدِيرِ أَنَّهُمْ أَهْل اللَّه أَيْ أَوْلِيَاؤُهُ الْمُخْتَصُّونَ بِهِ اِخْتِصَاص أَهْل الْإِنْسَان بِهِ)[2].

والمخاطب بهذه الآية ليس المجادلون في أمر النبي ﷺ، بل الحائرون بين الناس، ويبحثون عن الحقيقة، وخير مثال على ذلك هو سلمان الفارسي، فقد سأل أهل الذكر حتى وصل إلى النبي محمد ﷺ وآمن به.

قوله (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (44) هنا يستظهر القرآن الكريم وظيفة النبي ﷺ وأنه مكلف بالبيان للناس عما أنزل إليه من ربه [3]، والغاية من ذلك أن يتدبر الناس كلام الله ويتفكروا في آياته، فالنبي مكلف أن يعلمهم التفكر وليس أن يحفظوا العلم دون أن يتفكروا فيه، قال تعالى (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(11) فالغاية هي أن يتفكروا في الذكر كما يتفكرون في الخلق، قال تعالى (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (69).

---

1) الفتاوى الكبرى ج5 ص 166

2) حاشية السندي على ابن ماجة ج1 ص 199 رقم 211

3) فبيان ما في القرآن من إجمال هو مهمة الرسول ﷺ، لذا يجب على المفسر إذا وجد التفسير النبوي بطريق صحيح ثابت، ألا يعدو إلى غيره، فإنه – أعني التفسير النبوي هو الطراز الأول لتفسير القرآن.انظر الدكتور/ عبد المجيد الشيخ عبد الباري رسالته (الروايات التفسيرية في فتح الباري) ص84

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إذن لابد من معرفة الطريقة التي علم بها النبي ﷺ أصحابه ليصيروا متفكرين، فأصحاب النبي ﷺ كانوا "أصحاب فكر"، وليس فقط عباد أو مجاهدين كما تصورهم بعض كتب السيرة وتقتصر على ذلك، بل كثير منهم كان صاحب مدرسة فكرية، فمدرسة عمر بن الخطاب "الفكرية" تتكامل مع مدرسة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ومدرسة أبي ذر "الاقتصادية" تتكامل مع مدرسة عبد الرحمن بن عوف، ومدرسة خالد بن الوليد "العسكرية" تتكامل مع مدرسة عمرو بن العاص، وهكذا لو بحثت في سيرتهم لوجدتهم جميعا أصحاب فكر ورأي ومدارس علمية في كل المجالات، ولذلك قادوا الأمم بعد وفاة النبي ﷺ.

قوله (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (45) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (46) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)(47) انتقال من الحكاية عن الباحثين عن الحقيقة، وعن طريقة تعليم الناس الحقائق إلى المكذبين بها والذين يمكرون السيئات، حيث لا ينفعهم إنذار، وإنما يحيق بهم عذاب الله العاجل، أي الذين يستعجلوه- ستهزاءً – حيث يباغتهم بخسف في حال الغفلة وهم لا يشعرون أو يأتيهم وهم في تقلبهم في المعصية أو وهم يتفاخرون بملكهم وجنودهم أو حال ترقبهم الخطر[1]، أي يأتيهم على كل حال.

ذلك أن الذين يمكرون السيئات يفارقون الكون في انسجامه مع الذكر وسجوده لله رب العالمين، لأنهم ليسوا مجرد عاصين لله تعالى، فكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، ولكنهم يدبرون

1) في هذا المعنى تفسير الالوسي ج10 ص 179

ويخططون لتدمير الإسلام وأهله، فهم يريدون طمس سنة الله في الكون، أولئك الذين قاطعوا النبي ﷺ وأصحابه، ومنعوا عنهم البيع والشراء والزواج، أولئك الذين هاجر النبي ﷺ بعيدا عنهم لما ضيقوا عليهم الطرق وأوصدوا عليه كل باب للدعوة، ثم هم مكروا في حربه بعد ذلك حتى ألبوا الأحزاب عليه، فلم يتركوا وسيلة للمكر به إلا اتبعوها، قال تعالى (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)(إبراهيم /46)، هذا كله لأجل تخليته عن نواديهم وأماكن معاصيهم وشركهم، يمكرون ليزيدوا من أعمالهم السيئة.

قوله (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ) (48) أراد الله سبحانه أن يبين لهؤلاء الماكرين شيئا من قدرة الله تعالى في خلقه، يظهر لهم كم أن الكون منسجم في عبادته لله ولا يشذ أحد عن عبادته، فكل الظلال تعبد الله، ولا تشذ عن عبادته وإن جهل صاحبها وضل عن عبادة ربه، فإن ظلاله تظل ساجدة لله تعالى، قال تعالى (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)(الرعد/15).

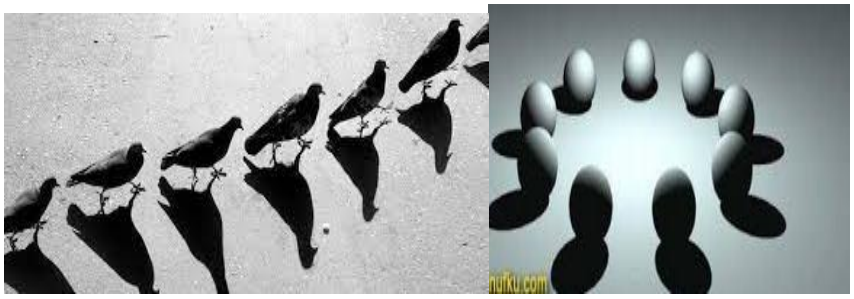

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال ابن كثير (فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرها، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم، الذي لا يخالف ولا يمانع) [1]، والدليل على ذلك ظل الإنسان، فهو ظاهرة كونية تتحقق بأمر الله، فيمد الله الظل ويتقلص كما أمر الله تعالى، فهل يستطيع الإنسان أن يتحكم في ظله فيخرجه عن قوانين الله تعالى والتي يسميها العلماء بالقوانين الفيزيائية.

فالعلماء اكتشفوا الساعة الشمسية، وهذه الساعة عن طريقها استطاع الإنسان أن يحسب الوقت، من خلال النظر إلى زاوية سقوط الظل، فكلما انحرف الظل يمينا وشمالا كما ذكر الله في الآية عرف الوقت، فهل انحرف الظل يوما عن غير مساره أو خرج عن القانون الذي سيره ربه فيه.

المزولة الشمسية هي أول ساعة اخترعها الإنسان فقد كتب عنها العالم الخوارزمي وكان العرب المسلمون يستخدمونها لتحديد أوقات الصلاة فهي تعتمد على الشمس وزاوية انحرافها عن الأفق، أي أن مبدئها يعتمد على الزوايا عوضًا عن الساعة والدقائق والثواني.، ففي الصيف، عندما تقترب الشمس من السمت، يكون ظلها أصغر منه في الشتاء. وهذا يبين لنا أن ارتفاع الشمس في السماء يتغير باختلاف

1) تفسير ابن كثير ج2 ص 69

الفصول وأن طول النهار يتغير هو الآخر، ويرجع ذلك إلى حركة دوران الأرض حول الشمس، التي تتم وفقـًا لميل محور دوران الأرض، الذي لا يتغير أثناء دوران الأرض حول الشمس.

قوله (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (49) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (50) فصل الله تعالى معنى "السجود" بأنه الالتزام بأمر الله، فالشمس والقمر لا يستطيعان أن يخالفان أمر الله، وإنما يجريان بأمره، وكذلك كل من في السماوات ومن في الأرض كلهم لا يخرجون عن أمر الله، والملائكة لا تعصي الله ما أمرهم، (والسياق القرآني يعبر عن خضوع الأشياء لنواميس الله بالسجود وهو أقصى مظاهر الخضوع ويوجه إلى حركة الظلال المتفيئة أي الراجعة بعد امتداد وهي حركة لطيفة خفيفة ذات دبيب في المشاعر وئيد عميق. ويرسم المخلوقات داخرة أي خاضعة خاشعة طائعة. ويضم إليها ما في السماوات وما في الأرض من دابة. ويضيف إلى الحشد الكوني.. الملائكة فإذا مشهد عجيب من الأشياء والظلال والدواب. ومعهم الملائكة. في مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود. لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يخالفون عن أمره. والمنكرون المستكبرون من بني الإنسان وحدهم شواذ في هذا المقام العجيب).

وقوله (وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) جملة حال لمن يسجد لله تعالى، فلم يحول بينه وبين تنفيذ أوامر الله شيء، ما يعني أن كثير من العصاة والمذنبون الذين لا ينفذون أوامر الله حالهم بخلاف هؤلاء أي أنهم مستكبرون، كما في قوله (وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) (22).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقوله (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (50) تأكيد على مفهوم السجود لله والإذعان لأوامر، فالسجود يعني بحق فعل ما أمر الله والانتهاء عما نهى عنه، قال أبو حيان (لما ذكر تعالى قدرته على تعذيب الماكرين وإهلاكهم بأنواع من الأخذ، ذكر تعالى طواعية ما خلق من غيرهم وخضوعه ضد حال الماكرين، لينبههم على أنه ينبغي بل يجب عليهم أن يكونوا طائعين منقادين لأمره)[1]

قوله (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)(51) فإذا كان الظل يتحرك يمينا ويسارا بهذه الدقة المتناهية التي لا تختل لحظة، أفلا يكون ذلك دليلا على أن الذي خلقه واحد، وأنه هو الله سبحانه، فإذا استشهد الإنسان بالظل على خالقه، لماذا يشرك بعد ذلك ويدعو إلها غيره، والكون كله شاهد على وحدانيته، وإلا لما التزم الظل هذه الدقة في الحركة، إذ لو كان ثمة إله غير الله لتحرك الظل يوما إلى غير مساره.

وقوله (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) جاء بعد نهيهم عن الشرك بالله وأمرهم بتوحيد العبادة له، وجاء في صورة القصر، بعد تحويل الكلام من الغائب إلى المتكلم ليقصر الخوف والرهبة عليه، فليحذر الذين يشركون في العبادة غير الله، وليرهبوا الله خالقهم أن يترل بهم عذابهم أو لينتهوا عما هم فيه، كما هددهم في قوله (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (73).

---

1) البحر المحيط ج7 ص 251

قوله (وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا[1] أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ) (52) أسلوب اختصاص، فكما اختص سبحانه بالملك وحده، فكذلك يحق له أن يكون الإخلاص في العبادة له وحده، وعلى وجه الدوام، بلا انقطاع، قال أَبو إِسحق قيل في معناه دائِبًا أَي طاعتُه دائمةٌ واجبةٌ أَبدًا)[2]، قال الله تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (البينة: 5)، وقال الله سبحانه :﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر: 3].

قال ابن المبارك "رُبَّ عملٍ صغير تعظمه النية، ورُبَّ عملٍ كبير تصغره النية)، قال بعض العارفين (إني لأُحِبُّ أن تكون لي نية في كل شيء حتى في الطعام والشراب)، يقول النبي ﷺ (وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا) [3].

قوله (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) هذا هو غرض السورة الرئيسي التذكير بنعمة الله، ليقر الإنسان بفضل الله عليه، فإذا أقر بذلك استتبع ذلك إقراره بألوهيته سبحانه واستحقاقه وحده للعبادة، قال مقاتل (ليوحدوا رب هذه النعم)[4]، قال الرازي (النعمة – من حيث جهة وصولها إلى العبد – على ثلاثة أقسام: أحدها: نعمة تفرد لله بإيجادها، نحو أن خلق ورزق، وثانيها: نعمة وصلت من جهة غير الله في ظاهر

1) والوُصُوبُ: دَيْمُومةُ الشيءِ فهو واصِبٌ دائم، كتاب العين ج7 ص 168
2) لسان العرب ج 1 ص 797
3) رواه مسلم ج5 ص 177 رقم 1674
4) تفسير مقاتل ج2 ص 224

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأمر، وفي الحقيقة فهي أيضًا إنما وصلت من الله تعالى، وذلك لأنه تعالى هو الخالق لتلك النعمة، والخالق لذلك المنعم، والخالق لداعية الأنعام بتلك النعمة في قلب ذلك المنعم، إلا أنه تعالى لما أجرى تلك النعمة على يد ذلك العبد كان ذلك العبد مشكورًا، ولكن المشكور في الحقيقة هو الله تعالى ولهذا قال: (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ) (لقمان: 14) فبدأ بنفسه تنبيهًا على أن إنعام الخلق لا يتم إلا بإنعام الله، وثالثها: نعم وصلت من الله إلينا بسبب طاعتنا، وهي أيضًا من الله تعالى ؛ لأنه لولا أن الله سبحانه وتعالى وفقنا للطاعات وأعاننا عليها وهدانا إليها وأزاح الأعذار عنا وإلا لما وصلنا إلى شيء منها، فظهر بهذا التقرير أن جميع النعم في الحقيقة من الله تعالى)[1].

قوله (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ)(53) (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)(54) استظهار لحال الإنسان وقد ألف النعمة فلم يشكر ربه عليها، وحينما يقتر الله عليه النعمة، ويمسه الضر، حينئذ يتذكر فضل ربه –، فلم يجد سببا ينظر إليه، فلما قُتِّر عليه أحس بالنعمة، فالآية تصور حاله وهو يسرع في اللجوء إلى الله رب الأسباب بعد انقلاب حاله، وقد فاتته الأسباب، عندئذ يرفع أكف الضراعة لله تعالى أن يزيل عنه ما نزل به من ضر، ولو أنه عرف الله في الرخاء لعرفه في الشدة، ولكن رحمة الله واسعة، فلا يضيق عليه ويستجيب له ليختبره بعد كشف الضر، لكن سرعان ما يتناسي العبد فضل ربه عليه، بل وينسب الإنجاء الذي تفضل الله به عليه إلى غيره، فيشرك بالله، كمن ينسب الشفاء للطبيب، والله هو الشافي المعافي، وإنما الطبيب سبب سخره الله له، قال تعالى: (قُلْ مَن

1) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 157 ونقل النيسابوري هذه المعاني الثلاث مختصرة في تفسيره ص50

يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ) [الأنعام: 63، 64].

وذلك بخلاف حال المؤمن الذي لا يعتمد على الأسباب، وهو أخذ به طاعة لأمر الله تعالى الذي أمر بالتداوي، والمثال على ذلك نبي الله أيوب لما طال زمن المرض عليه واشتد عليه، وقد تم الأجل المقدر، تضرع إلى الله رب العالمين ليرفع عنه البلاء (رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين)، والدعاء من الأسباب، فأراد الله أن يرفع عنه البلاء، وأمره بأن يأخذ بالأسباب (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ) (ص/42) (حيث أمره أن يقوم من مقامه ويضرب برجله الأرض ويسعى ويركض ويغتسل ويشرب من الماء الذي نبع من الأرض بقدرة الله عز وجل حتى ذهب عنه المرض الذي كان يشكو منه وقام سليمًا معافى بإذن الله تبارك تعالى)[1].

قوله (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (55) فما أجحد الإنسان بنعمة ربه، وسرعان كفره وشركه، فكأنه لما ذاق النعمة بعد أن كشف الله الضر عنه سُحِر بها، فشكر الأسباب ونسي رب الأسباب، رب كل شيء ومليكه، هنا يتركه الله تعالى ليتمتع بنعمه لعله يشكر الله بعد النعمة، ولعله يفيق من غفلته أو ليتمتع حتى لا تبقى له حسنة فيأخذه بعذابه، كقوله: (قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) [الزمر/8]، وقوله: (قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ) [إبراهيم/30]، وقوله: (ذَرْهُمْ

1) سعد بن عبد الله العجمة الغامدي، الطائف، موسوعة خطب المنبر ج1 ص 1808

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) [الحجر/3]، وقوله: (فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ) [الزخرف /83]، وقوله: (كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ) [المرسلات/46].

المبحث الرابع
الوحي والرسالة رحمة الله بالظالمين وإن كانوا مفترين

هذا المبحث يثير قضية إلى أي حد شذ الإنسان في هذا الكون عن منظومة السجود لله سبحانه، حتى تجرأ على الافتراء على الله الكذب، فاتخذ من نفسه إلها، وسن لنفسه شرعا بخلاف شرع ربه، حتى أنك تضحك عندما ترى هذا الإنسان الفقير يحاول أن يقسم الأرزاق بحسب هواه، وليتهم يزعمون أنهم يقسمون هذه القسمة بين البشر وحسب، بل إنهم ليتطاولون على الله فيقسمون لله جنوده، وينسبون له الأنثى ولهم البنين، وهم في قرارة أنفسهم يخجلون عندما يرزقهم الله بأنثى، فيقولون الملائكة بنات الله، انظر كيف صارت عقيدتهم، وكيف آلت إلى سخرية من الدين كله، أفلا يؤاخذهم الله على ظلمهم، ولكنه سبحانه يقدر كل شيء في وقته بحسب قضائه، هؤلاء الذين يزعمون الكمال لأنفسهم، وينسبون النقص لله سبحانه، هؤلاء الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، لم يتركهم الله تعالى بلا ناصح أمين، وقد أرسل عليهم رسله وأنزل كتابه حتى لا يختلفوا بعد الهدى، ويريهم رحمته في المؤمنين.

قال تعالى {وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (56) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (57) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (60) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (64)}

قوله (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) (56) عن مجاهد قال: (يعلمون أن الله خلقهم ويضرهم وينفعهم، ثم يجعلون لما لا يعلمون أنه يضرّهم ولا ينفعهم نصيبا مما رزقناهم)[1]، قال الجزائري (وهذا ذكر لعيب آخر من عيوبهم وباطلٍ من باطلهم أنهم يجعلون لأوثانهم التي لا يعلمون عنها شيئًا من نفعٍ أو ضر أو إعطاء أو منع أو إماتة أو أحياء يجعلونها لها طاعة للشيطان نصيبًا وحظًا من أموالهم يتقربون به إليها فسيبوا لها السوائب، وبحروا لها البحائر من الأنعام، وجعلوا لها من الحرث والغرس كذلك كما جاء ذلك في سورة الأنعام والمائدة قبلها)[2].

والمعنى أعمق مما ذكر، فالاعتماد على الأسباب أيا كان شكلها أو اسمها – سواء علمها العبد أو لم يعلمها – شرك، كالذي يعتمد على المال أو السلطان في جلب النفع أو درء الضر، قال ابن تيمية (ولهذا قال طائفة من العلماء الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد)[3]، وقال (فالموحد المتوكل لا يلتفت إلى الأسباب بمعنى أنه لا يطمئن إليهاولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها فإنه ليس في الوجود سبب يستقل

1) تفسير الطبري ج17 ص 226
2) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 304
3) أمراض القلب وشفاؤها ج1 ص 52 مجموع الفتاوى ج8 ص 70

بحكم، بل كل سبب فهو مفتقر إلى أمور أخرى تضم إليه وله موانع وعوائق تمنع موجبه، وما من سبب مستقل بالإحداث إلا مشيئة الله وحده، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وما شاء خلقه بالأسباب التي يحدثها ويصرف عنه الموانع فلا يجوز التوكل إلا عليه)[1].

قال ابن القيم (المتمكن في حال فنائه عن الأسباب.. هو الذي يجد طعم الاتصال حقيقة -بالله- فإنه على حسب تجرده عن الالتفات إلى الأسباب يكون اتصاله -به- وعلى حسب التفاته إليها يكون انقطاعه -عنه سبحانه- وكلما تمكن في جمع همه على الحق سبحانه وجد لذة الجمع عليه، وذاق طعم القرب منه والأنس به)[2].

قوله (تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ) هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب وهذا السؤال للتقريع والتوبيخ، أي (عما كنتم تختلقونه من الكذب على الله سبحانه في الدنيا) [3]، ومحل الإفتراء هنا تصوير الأسباب وتضخيمها للناس على أنها تنفع وتضر، وهي ليست كذلك.

قوله (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)(57) قال ابن تيمية (بين سبحانه وتعالى أنهم يفضلون أنفسهم على ربهم ويجعلون له ما يكرهون.. فبين سبحانه أن هذا الحكم حكم سيء)[1]، قال ابن جزي (المعنى أنهم يجعلون لأنفسهم ما يشتهون يعني بذلك الذكور من الأولاد)[2].

---

1): شيخ الإسلام بن تيمية- منهاج السنة النبوية ج5 ص 256 المحقق: د. محمد رشاد سالم

2) مدارج السالكين ج3 ص 96

3) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ج3 ص 243

قوله (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)(58) كان العرب في الجاهلية يتمنى أحدهم بل وتشتهي إنجاب الذكور دون الإناث، ذلك أن الذكر ليس كالأنثى، فقد فضل الله الرجال على النساء في القوامة، والرجل يستقوى بأولاده الذكور، ويخاف على أولاده من النساء، وهذا الأمر قد تغير بعد الإسلام، حيث أضحى للولد والبنت ذات الحقوق كأبناء، لما روي عَنْ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا قَالَ لَا قَالَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ قَالَ فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ)[3] فالحديث لم يفرق بين الذكر والأنثى، وهي بالطبع تسوية ليست مطلقة، وإنما نسبية بحسب حاجة كلاهما، لأنها لو كانت مطلقة لكانت ظالمة، أما وإنها نسبية فذلك لمراعاة الحاجة.

---

1) درء تعارض العقل مع النقل ج4 ص 56

2) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 843

3) رواه البخاري ج9 ص 40 رقم 2398

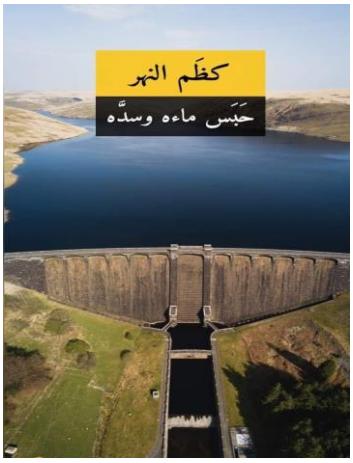

ولذلك إذا بشر أحدهم بإنجاب أنثى كان يسود وجهه من كظم الغيظ، حيث كانت تعيره القبائل بذلك، لأن القبائل حين تغير على بعضها البعض فإن أول ما تعير به القبيلة هو اغتصاب الأنثى أو أسرها لدي الغاصبين

قوله (يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) (59) كان شعور الخزي والعار يلحق بالرجل حين يعرف أنه أنجب أنثى، في اعتراض صريح على قضاء الله وقدره، يقول سبحانه (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (الشورى/50).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ورغم ذلك كان أهل الجاهلية يتوارى أحدهم من القوم مخافة أن يُبَشَّر بما رزقه الله من إنجاب الأنثى، بل إنه كان ليخفي الخبر بقتلها أن يعرف الناس، أي يحكم عليها بالموت حتى لا يكون لديه نقطة ضعف أمام الناس، وهكذا كانوا يستعلون بأنفسهم ويستكبرون، وكان من تكبرهم أن يقتلون كل نقطة شفقة ورحمة خلقها الله منهم حتى لا يكون لأعدائهم مدخلا للشماتة منهم.

والعجيب أنهم ورغم استنكافهم أن يرزقوا بالأنثى، بل ويتعيرون بذلك، فإنهم ينسبون لله الأنثى، ويقولون الملائكة بنات الله، وتفسير ذلك رغبتهم في تأليه أنفسهم وتعظيمها بحيث تستعلي عن قوانين الإله الذي يزعمون الإيمان به، أي تسفيه كل دين ينقص من ألوهيتهم وتعظيمهم لأنفسهم.

ولذلك فإنهم كانوا ينسبون لله النقص في زعمهم، حتى لا يكون له ثمة سلطان عليهم، حتى وإن كانت العقيدة التي يعلنون أمام الناس أنهم يؤمنون به ظاهرا، فهم يهونون من أمر "الإله" ليكون قدره أقل من تعظيمهم لأنفسهم، ولا يتخلون عن عبادته حتى لا يصفهم الناس بالكفر والإلحاد، فيعلنون إيمانهم بالإله، ثم يصغرونه فيما ينسبوه له مما يكرهون لأنفسهم، وبذلك يستعلون عن الإله الذي يؤمنون به، وتلك هي الحيلة الشيطانية التي زينها لهم.

قوله (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(60) يدافع الله عن نفسه –سبحانه– بالتأكيد على أن الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لهم النقص، ويجب أن ينسب لهم السوء، والله تعالى لا ينسب إليه إلا كل حسن، بل له المثل الأعلى سبحانه وتعالى على كل شيء، قال ابن عباس (وليس كمثله شيء)[1] وهو السميع البصير، وهو العزيز الحكيم.

قال ابن كثير في قوله (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) أي: الكمال المطلق من كل وجه [2]، قال أبو حيان (وهو الوصف المتره عن سمات الحدوث والتوالد، وهو الوصف الأعلى الذي ليس يشركه فيه غيره، وناسب الختم بالعزيز، وهو الذي لا يوجد نظيره –ويعز عن السؤال والحاجة والافتقار للولد –، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها)[3].

قوله (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)(61) أي أن الله تعالى لو حاسبنا بالعدل لهلكنا، فليس أحد منا يستحق النجاة، لتقصير كل منا في واجب الشكر لله، والإخلاص له، ولكن الله سبحانه يتجاوز عن ذلك كله، فيؤخرنا لأجل هو يعلمه، فإذا جاء هذا الأجل فإنه سبحانه يجازي المحسن بإحسانه فضلا ورحمة، والمسيء بالإساءة عدلا.

---

1) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 95

2) تفسير ابن كثير ج4 ص 578

3) تفسير البحر المحيط ج7 ص 251

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال ابن القيم (فلولا سعة رحمته ومغفرته وعفوه لما قام العالم، ومع هذا فالذي أظهره من الرحمة في هذه الدار وأنزله بين الخلائق جزء من مائة جزء من الرحمة، فإذا كان جانب الرحمة قد غلب في هذه الدار ونالت البر والفاجر والمؤمن والكافر مع قيام مقتضى العقوبة به ومباشرته له وتمكنه من إغضاب ربه والسعي في مساخطته، فكيف لا يغلب جانب الرحمة في دار تكون الرحمة فيها مضاعفة على ما في هذه الدار تسعة وتسعين ضعفا).

وقال كذلك (وقد أخذ العذاب من الكفار مأخذه وانكسرت تلك النفوس ونهكها العذاب وأذاب منها خبثا وشرا.... فكيف إذا زال مقتضى الغضب والعقوبة وقوى جانب الرحمة أضعاف أضعاف الرحمة في هذه الدار واضمحل الشر والخبث الذي فيها فأذابته النار وأكلته)[1].

قوله (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (62) قال ابن تيمية (فإن الله أخبر أنهم إذا لم يرضوا لأنفسهم أن يكون مملوك أحدهم شريكه و لم يرضوا لأنفسهم أن يكون لهم البنات فربهم أحق وأولى بأن يتزهوه عما لا يرضوه لأنفسهم، للعلم بأنه أحق منهم بالتتريه عما هو عيب ونقص عندهم، وهذا كما يقوله المسلم للنصراني كيف تتره البتريك عن أن يكون له ولد وأنت تقول أن لله ولدا، وكذلك هنا هو يتره العالم المتحيز أن يكون مفتقرا إلى شيء موجود ولا يتره الرب المعبود إذا كان فوق العرش أن يكون مفتقرا إلى شيء موجود والخالق أحق

1) حادي الأرواح ج1 ص 273

بالغنى من المخلوق، فتتريهه عن الشريك والولد والحاجة كل ذلك واجب له فإذا نزه بعض الموجـــودات عن شيء من ذلك كان تتريهه الباري عنه أولى وأحرى)[1].

قوله (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ..) (63) فمن أعجب العجب أن يزين لهم الشيطان قتل أولادهم، قال ابن عاشور (تأثير تزيين الشيطان لهم أعمالهم بعدما جاءهم مـــن إرشاد رسلهم أمر عجيب)[2]، ولكنه فُسِّر بقوله (فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ) أي أن الشيطان كما زين لهم "عمـــل السوء" فقد زين لهم "صحبته وولايته" لهم.

قوله (..فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (63) قال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِـــنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأنعام/129)، فشتان بين من كان الشيطان وليه، ومن كان الله وليه، قال تعـــالى (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) (المائدة /55).

---

1) بيان تلبيس الجهمية ج2 ص 143

2) التحرير والتنوير ج13 ص 156

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نجد هنا أن مفهوم الولاية انقلب عند هؤلاء فأضحى الشيطان هو الذي يستمدون منه القوة والنصر، وهو الذي يعتمدون عليه في جلب المصالح، انقلبت عداوتهم له إلى محبة وود بل وطاعة وإذعان لما يأمرهم به، قال تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا) (مريم/83).

قوله (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (64) رغم كل ما تقدم من ذم لهؤلاء الذين اتخذوا الشيطان وليا، فإن الله سبحانه لا يترك عباده فريسة للشيطان، وإنما يترل عليهم الكتاب، ويرسل إليهم الرسل يتلون عليهم آياته، فيبينون لهم ما اختلفوا فيه، فلا تشتبه عليهم شبهة، ولا يزين لهم باطل، بل يكشف الله الحق من الباطل، ويدحض عمل الشيطان، هنا يستبين لهم الهدى من الضلال، ويرون رحمة الله بالمؤمنين، فالكافر حينما يرى رحمة الله بعباده المؤمنين يستثير ذلك غيرته، فلعل ذلك يحمله على أن يسأل الله رحمته كما سألها عباده المؤمنين فتغمده الله بها.

المبحث الخامس

عودة للتذكير بنعم الله واستظهار قدرته على الرزق

بعدما استظهر الله رحمته بالمفترين عليه الكذب بأن أرسل لهم الرسل وأنزل عليهم كتابه ليهتدوا بهداه ويرحمهم برحمته، فإنه سبحانه يستظهر – في هذا المقطع – صورا من رحمته وقدرته وعنايته بخلقه ورزقه لهم، ولذلك أعاد التذكير بنعمة إنزال المطر لإحياء الأرض، ثم هو سبحانه يشير إلى نعمة خلق اللبن صافيا من ضروع الأبقار والجاموس والأغنام، ونعمة ثمرات النخيل والأعناب لنتخذ منها الرزق الحسن، وكذلك نعمة النحل وقد انتظم بأوامر ربه فأخرج العسل فيه شفاء للناس، ثم هو سبحانه يذكر الإنسان بأصل خلقه وتطوره ورده إلى أرذل العمر، حتى يستشعر افتقاره لربه.

ثم يضرب الله تعالى مثلا للإخلاص له وبطلان عقيدة الشرك بأنفسهم وما ملكت أيمانهم، فهم لا يرضون أن يشاركوهم أملاكهم وأرزاقهم، فكيف بهم ينسبون لله شريكا له في ملكه، حاشا لله، ولذلك يبكتهم بقوله (أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) ثم هو سبحانه يعود ليذكرهم بنعمة الزوج، والبنين والأحفاد، واستقرار الأسرة والتمتع بالطيبات، ثم يعود سبحانه ليبكتهم (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كما ينتقل السياق ليضرب مثلا آخر يدل على عجز آلهتهم فهي لا تنفع ولا تضر، بل هي في العجز كالأبكم الذي لا يتكلم، والأصم الذي لا يسمع، ولا نفع منها البتة، بينما الله سبحانه شرعه كله خير وعدل وإحسان.

ثم يعود الخطاب للتذكير – مرة أخرى – بنعمة الله على خلقه وقد أخرجهم من بطون أمهاتهم وخلق فيهم حواس الإدراك، وهم لا يفقهون طريقة عملها، فالله سبحانه يفتح أنظارهم ليروا قدرة الله في إمساك الطير في السماء، ويذكرهم بنعمة السكن في البيوت، والأثاث والظل، والإيواء في الجبال، واللباس الذي يقي من الحر وآخر يقي من سهام الأعداء، فالتذكير بكل هذه النعم غايته أن يدخل الناس في الإسلام، بعدما تستسلم قلوبهم لقدرة الله، وتنتظم في منظومة السجود له سبحانه، لينتهي المقطع بقوله (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (82) ليتغير أسلوب الخطاب –في المقطع التالي–بعد التذكير بالنعم إلى التهديد بالعذاب الأليم.

قال تعالى {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (65) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (66) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ

شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (70) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (71) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (72) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (74) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (75) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (76) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (77) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82)}

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا..)(65) قال ابن كثير (كما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي –الله– الأرض بعد موتها بما يترله عليها من السماء مـــن ماء)[1].

والله تعالى يحيى الأرض الموات بالمطر، وكذلك بجهد الإنسان وسعيه بالري وإيصال الماء إليها، فإحياء الأرض الموات سنة نبوية، فعن النبي ﷺ قال (ومن أحيى من موات الأرض شيئا فهو له وليس لعرق ظالم حق)[2]، وقد حضت السنة على ذلك فقال النبي ﷺ (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ)[3].

1) تفسير ابن كثير ج4 ص 580

2) رواه الدارقطني في سننه ج4 ص 217 رقم 50 وصححه الألباني: الجامع الصغير 1ص757 إرواء الغليل360/5

3) رواه البخاري ج8 ص 118 رقم 2152

وقوله (..إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) أي: (يفهمون الكلام ومعناه)[1]، قال الشعراوي (مع أن هذه الآية تُرَى بالعين ولا تُسْمع، قال القرآن: (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)... لماذا؟ قالوا: لأن الله سبحانه أتى بهذه الآية لِيلْفتَهم إلى المنهج الذي سيأتيهم على يد الرسول ﷺ، وهذا المنهج سَيُسمع من الرسول المبلّغ لمنهج الله)[2].

قوله (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ)(66) قال الشيخ أبو بكر الجزائري (فسبحان ذي القدرة العجيبة والعلم الواسع والحكمة التي لا يقدر قدرها.. اللبن يقع بين الفرث والدم، فينتقل الدم الى الكبد فتوزعه على العروق لبقاء حياة الحيوان، واللبن يساق الى الضرع، والفرث يبقى أسفل الكرش، ويخرج اللبن خالصًا من شائبة الدم وشائبة الفرث فلا يرى ذلك في لون اللبن ولا يشم في رائحته ولا يوجد في طعامه بدليل أنه سائغ للشاربين، فلا يغص به شارب ولا يشرق به، حقًا إنها عبرة من أجل العبر تنقل صاحبها الى نور العلم والمعرفة بالله في جلاله وكماله، فتورثه محبة الله وتدفعه الى طاعته والتقرب إليه)[3].

1) تفسير ابن كثير ج4 ص 580
2) تفسير الشعراوي ج1 ص 4954
3) أيسر التفاسير ج2 ص 307

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أثبت العلم أن اللبن يتكون في بطون الأنعام من خلال عملية محكمة، وتنسيق بديع بين الجهاز الهضمي والجهاز الدوري والتناسلي، حيث تلعب الغدد اللبنية في الضروع وغيرها دورا رئيسيا في هذه العملية من خلال عدة مراحل:-

المرحلة الأولى عملية هضم العلف الذي تأكله الأنعام في الكرش بعد عدة مستويات ليصل في النهاية إلى ما يسمى بـ "الرفث".

المرحلة الثانية عملية استخلاص الأحماض الأمينية من الرفث، إذ يحدث تخمر وتغير في تركيب الرفث حيث تقوم الكائنات الدقيقة إلى تحليل فلورا الكرش (السليلوز والمواد السكرية) لإنتاج ثلاثة أحماض دهنية (الخليك – البيوترك – البروبيونيك) وتمتص الشعيرات الدموية المنتشرة حول الكرش هذه الأحماض دون مرورها في القناة الهضمية إلى الأمعاء -كما هو متبع في باقي الغذاء - ثم تصل إلى الغدد اللبنية، وتستمر عملية الهضم بانتقال الرفث إلى الأمعاء الدقيقة حيث يتعرض للإنزيمات الهاضمة في الأمعاء والبنكرياس والعصارة الصفراء –من الحويصلات الصفراوية- في الكبد، فيتحلل الطعام الذي يحتوي على جزيئات معقدة إلى جزيئات بسيطة، ويتحول النشا والسكر إلى جلوكوز، وتتحول الدهون إلى جليسرون وأحماض دهنية، وتتحلل البروتينات إلى أحماض أمينية، أما الأملاح والفيتامينات والماء يتم امتصاصها دون هضم، ثم تقوم الخملات في الأمعاء الدقيقة بامتصاص المواد المحللة داخل أوردة الدم الواقعة تحت النسيج الطلائي، ومنها إلى الأوردة الدموية الأكبر لتدخل في الدورة الدموية وتصل إلى القلب.

(نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا)

العلم الحديث إكتشف بأن ضرع الماشية يعتمد أساسا على الدم المزود بنواتج هضم الفرث.

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ)

المرحلة الثالثة: عملية الاستخلاص من الدم، حيث يمر الدم المحتوي على الغذاء إلى الكبد لتبدأ عملية معقدة يتحول فيها حمض البروبينك الموجود في المواد الغذائية الممتصة في الدم إلى مادة الأوكسال اسيتيت لينتج جزئ الجلوكوز ليتحد مع جزئ الجلاكتوز لينتج جزئ اللاكتوز وهو سكر اللبن، كما يقوم حمض الخليك إلى تكوين دهن اللبن، وحمض البيوترك يقوم بتكوين بروتين اللبن.

المرحلة الرابعة تكون اللبن في الضرع، حيث يعتبر الضرع مدينة صناعية، إذ يتكون من فصوص، وكل فص يتكون من عدد من الفصيصات، وكل فصيص يحتوي ما بين 150 إلى 220 حويصلة مجهرية، والحويصلة المجهرية عبارة عن تركيب يشبه الكيس يصنع اللبن ويفرز، فكل خلية في هذه الوحدة الصناعية وحدة متكاملة قائمة بذاتها تحول ما بداخل جوفها من مواد أولية قادمة من الدم إلى قطيرات لبن تفرز بعد ذلك التجويف[1].

قوله (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (67) في هذه الآيات أشار القرآن إلى الرزق الحسن وإلى خلافه من الشراب الذي يتخذ للسكر، وهو ما خامل العقل، فلم يسميه شرابا حسنا، وتلك إشارة إلى كراهية الخمر قبل نزول قرآن بتحريمه قطعا، وكان ذلك في أول الأمر عند دعوة الناس للإسلام، إذ لم يزل الخمر لم يحرم.

1) http://www.bayanelislam.net/Suspicion.aspx?id=04-04-0003

لكن بهذه الآية نزلت الإشارة إلى كراهة الخمر باعتباره وصفا مغايرا للرزق الحسن، تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها (إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا)[1]، فهذه الآية توطئة لتوحيد الألوهية بعد أن أقرت الألسنة بتوحيد الربوبية.

فكان التدرج في تحريم الخمر هو حكمة الخالق في التشريع، فهو أعلم بخلقه، وما يصلح لهم، فعن عمر قال: لما نزلت تحريم الخمر قال عمر رضي الله عنه: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت: (يسألونك عن الخمر والميسر) التي في سورة البقرة فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت التي في المائدة فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ: (فهل أنتم منتهون) قال عمر: قد انتهينا)[2].

والله سبحانه لم يتدرج معهم في بيان العقيدة وإصلاحها، فهي الأساس الذي يبنى عليه الدين، فليس قبلها شيء ينفع أن يتلقنه المرء، ولذلك استرسلت السورة في استظهار آيات الله تعالى في الكون والخلق للاستدلال على وحدانيته وتفرده سبحانه بالألوهية فضلا عن الربوبية.

---

1) رواه البخاري ج15 ص 394 رقم 4609

2) رواه الحاكم ج2 ص 305 رقم 3101 وصححه الألباني صحيح الترمذي 3255 وصحيح وضعيف سنن النسائي 40/12رقم5540

قوله (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)(68) آيــة أخرى تعرضها السورة للاستدلال على وحدانية الله سبحانه، فهو كما أشار إلى صلاح البشرية بالوحي المترل على عبده محمد ﷺ، فكذلك يشير إلى صلاح خلية النحل بالتزامها ما أوحي إليه به ربها سبحانه مما يصلح لها، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ:" " وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ "، قَالَ: ألهمها"[1]، حيث ألهمها وعلمها كي تتخذ بيوتها في ثلاث مواضع الجبال والشجر، ومما ينشئه الناس لها من عروش تعيش فيها.

يقول ابن عاشور (الوحي هو الكلام الخفي، وأطلق الوحي على التكوين الخفي الذي أودعــه الله في طبيعة النحل بحيث تَنْساقُ إلى عَمَلٍ مُنَظَّمٍ مُرَتَّبٍ بَعْضُهُ عَلى بَعْضٍ لا يَخْتَلِفُ فِيهِ آحادُها، فَإطْلاقُ الوَحْيِ اسْتِعارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ)[2]، فهذه الاستعارة التمثيلية يضرب الله بها المثال في الالتزام والطاعة بحيث لا تشذ نحلــة

1) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 98

2) التحرير والتنوير ج ص

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عما أودعه الله فيها من أمر فطري تتساق إليه بمقتضى الخلقة، وهكذا الإنسان لابد وأن يكون مثل النحل يذعن لأوامر ربه وينسجم معها كانجسام النحل لمقتضى فطرتها، إذ لو فعل ذلك لانتج مثل ما ينتج النحل من العسل الذي فيه شفاء للناس.

فالنحل ينتج مادة الشمع تلك المادة يصنع بها بيوتا سداسية الشكل يتخذها بيوتا له في الجبال والأشجار وما يعرشه الناس لها، (ومن آيات إلهام الخالق سبحانه وتعالى للنحل اتخاذها من الشكل السداسي أساسًا لبناء مسكنها من مادة الشمع التي تنتجها، وهذا الشكل يستخدم كمخادع لتربية الحفنة الصغيرة، أو مستودعات لتخزين العسل أو حبوب اللقاح؛ فبالإضافة إلى أن هذا الشكل الهندسي "السداسي" مهيأ تماما لأداء الوظائف السابقة، فإن الشكل السداسي للعين يتطلب أقل كمية من المادة البنائية "الشمع"، كما أن الشكل السداسي هو خير الأشكال الهندسية التي لا ينتج عنها فراغات بينية، وأن عدد العيون منها في مساحة معينة يفوق عدد الأشكال الأخرى في المساحة نفسها، وذلك لأن الشكل المسدس هو الشكل الوحيد الذي إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يحدث بينهم فرج، وهذا خاص فقط بالشكل المسدس دون الشكل المخمس أو المثمن أو المتسع أو المعشر. ونجد أن نحلة العسل حينما تملأ العين السداسية بالعسل فإنها تغطيها بغطاء من الشمع الخالص حتى لا يمتص العسل رطوبة أو

أية روائح. وحينما تحتوي العيون على حضنه، فإن النحلة تغطيها بغطاء نفاذ مكون من الشمع وحبوب اللقاح يسمح بمرور الهواء والأوكسجين إلى تلك الأخباء الموجودة داخل العين المقفلة، ومما يثير الدهشة أيضًا أن النحل عند بنائه الأقراص فإنه يترك بينها مسافة بمقدار 16.5 بوصة، يطلق عليها المسافة النحلية ولا يختلف أي نوع من أنواع العسل في ذلك، فمن ذا الذي علم النحل أصول هذا الفن من الهندسة والعمارة).

قوله (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا) تمتص النحلة الرحيق بلسانها الدقيق الذي تختلف أطواله من سلالة لسلالة أخرى، وهذا اللسان هو عبارة عن خرطوم مجوف يتم سحب الرحيق بواسطته للمعدة، هكذا يتم سحب الرحيق من الأزهار والتي تنتج العسل عن طريق الغدد الرحيقية، والرحيق هو السائل المخفف الذي أنتجته الزهرة، بينما العسل هو السائل الكثيف السميك الذي تم تكرار الرحيق في بطن النحلة، وتمت معالجة الرحيق في العيون السداسية داخل بطن النحلة كي يظهر بنتيجته النهائية عسلا ثقيلا يختلف عن الرحيق، فالرحيق المختوم هو العسل في صورته النهائية والذي تم ختمه من قبل النحل بواسطة الشمع، بحيث ختمه وغطاه بختم شمعي للحفاظ عليه، فهذا السائل المسمى رحيقا هو السكريات وهو الرحيق المتاح في الأزهار: وهو إفراز الغدد الرحيقية والأنسجة النباتية. سواء كانت من الغدد الرحيقية الزهرية في الكأس الزهرية، كما في زهرة السدر مثلا أم من غدد رحيقية على الأوراق كما في الكرز والقطن.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تتحدد صفات العسل حسب العامل المشترك وهو الماء فى المصادر الثلاثة التى حددها الله فى الأية الكريمة " أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون " فمن المعروف أن العسل يتكون من الرحيق، وهو حوالي 80% منه ماء ويتم تركيزه فى الخلية بمعرفة النحل ليصل إلى 22% حيث تتركز المعادن والاملاح المعدنية والتى تتحول أيضا لصورة نشطة أى أن العسل يتحدد حسب طبيعة الماء الذى يحصل عليه، أى أن الأفضلية تعود للماء وهو العامل المشترك فى الثلاثة

1- الجبال فمن المعروف أن أفضل عسل فى العالم هو فى جبال وادى دعم فى اليمن حيث يترل الماء على الجبال ويخزن بها بالشهور ثم يترل فى الوادى ليشرب منه النحل ويأخذ الرحيق من الازهار الناتجة من الاشجار والنباتات التى تنمو على هذا الماء فالعسل الناتج يأخذ صفات جودة الماء الطبيعى الذى لم تتغير خصائصة كما أن كل زهرة تكتسب الصفة حسب طبيعة حصولها على الماء من التربه وما تحمله من طاقة يخرج منه شراب (من النحل) أى فى صورة سائلة

2- الشجر.. وهو كائن آخر يشارك النحل حيث يقاسمه فى الاملاح والعناصر المعدنية ولذلك تصبح أقل تركيزا فى العسل.. وتتوقف جودته على طبيعة هذه الاشجار والنباتات التى يحصل منها على الرحيق وطبيعة الرى الذى يتحكم فيه الانسان أو من الامطار أو الآبار وكل يختلف فى طبيعة الماء والطاقة المؤثرة عليه

شكل(65)تتوقف جودة العسل على طبيعة الاشجار والنباتات التى يحصل منها على الرحيق

3- مايعرشون.. والعسل الناتج يشترك فى إنتاجه عوامل عديدة يتحكم فيها الانسان لصالحه ولانتاجه من العسل... سواء من الماء أو الغذاء أو الامراض ومقاومتها فانعكست هذه العوامل على

العسل وجودته وأصبح هناك تدهور فى البيئة حول المناحل من تلوث وأمراض تصيب النحل وأخطرها مرض الفاروا.

قوله (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (69) قال ابن عجيبة (إنما كان العسل فيه شفاء للناس؛ لأن النحل ترعى من جميع العشب، فتأخذ خواص منافعها، وكذلك العارف الكامل يأخذ النصيب من كل شيء، ويعرف الله في كل شيء، فإذا كان بهذه المنزلة، كان فيه شفاء للقلوب)[1]

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ الْعَسَلِ وَالْقُرْآنِ)[2]، فقد جعل الله العسل سبب للشفاء من أي مرض، والله هو الشافي المعافي، وإنما العسل هو سبب للشفاء، وقد يجعل الله لهذا العسل فاعلية والله قادر على أن يعدمه فاعليته، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ أَخِي يَشْتَكِي بَطْنَهُ فَقَالَ اسْقِهِ عَسَلًا ثُمَّ أَتَى الثَّانِيَةَ فَقَالَ اسْقِهِ عَسَلًا ثُمَّ أَتَاهُ الثَّالِثَةَ فَقَالَ اسْقِهِ عَسَلًا ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ قَدْ فَعَلْتُ فَقَالَ صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ

1) البحر المديد ج3 ص 281

2) رواه ابن ماجة ج10 ص 256 رقم 3443 وصححه الألباني موقوفا ج1 ص 280 رقم 756 مشكاة المصابيح ج2 ص 534 رقم 4571

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بَطْنُ أَخِيكَ اسْقِهِ عَسَلًا فَسَقَاهُ فَبَرَأَ)[1]، وعليه فإن شرب العسل بنية الشفاء هو من باب الأخذ بالأسباب، وهو أيضا من باب العبادة لله تعالى، لما روي عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ قَالَ قَالَتْ الْأَعْرَابُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا نَتَدَاوَى قَالَ نَعَمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ تَدَاوَوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً أَوْ قَالَ دَوَاءً إِلَّا دَاءً وَاحِدًا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُوَ قَالَ الْهَرَمُ[2].

ولفظ الشفاء الوارد بالآية يدل على أن "التداوي" عبادة، وعدم التداوي محرم لأنه مخالفة لسنة الله تعالى، وفيه إلقاء للنفس إلى التهلكة، وقد نهانا الله عن ذلك، كما نهى النبي ﷺ عن الضرر فقال ﷺ (لا ضرر ولا ضرار)، والعسل من أقوى المضادات الحيوية لشفاء الأجساد من الأمراض والميكروبات، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ وَأَنَا أَنْهَى أُمَّتِي عَنْ الْكَيِّ)[3].

قوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) قال ابن عجيبة (فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر، عَلِمَ، قطعًا، أنه لا بدّ له من قادر مدبر حكيم، يلهمها ذلك ويحملها عليه، وهو الحق تعالى)[4].

1) رواه البخاري ج17 ص 442 رقم 5252
2) رواه الترمذي ج7 ص 349 رقم 1961 وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 38
3) رواه البخاري ج17 ص 438 رقم 5249
4) البحر المديد ج3 ص 281

فقد لاحظ العلماء أن نحلات العسل تهضم كميات من العسل وتحولها الى شمع العسل beeswax عبر 8 غدد متخصصة، وأن عملية إنتاج شمع العسل من أجل بناء بيوته وتخزين العسل داخله، هي عملية مكلفة لأن تساوي على الأكثر 8/1 كمية العسل المُستَهلك وذلك حتى يستطيع أن يبني النحل خلاياه من وحدات ذات شكل منشوري سداسي المدخل تنتهي بشكل معين رباعي مغلق ترتكز عليه وحده أخرى من الجهة المعاكسة، ويسمى قرص الشمع بمشط العسل honeycomb ولطالما تسائل العلماء منذ مئات السنين عن سبب إختيار النحل الأشكال السداسية لبناء بيوته، بقي الامر محيرًا حتى عام 1999 حين أثبت عالم الرياضيات Thomas hales أن الأشكال السداسية هي النموذج الأنجع لاستغلال أقل كمية من شمع العسل في بناء أكبر حجم مقسم الى وحدات متساوية ضمن حيّز معطى!إذ يُعتمَد نموذج المبنى السداسي في هندسة البناء، الكيمياء، الميكانيكا والطب وذلك بفضل متانته الفائقه إذ يُخزِّن مشط العسل المصنوع من 100 غرام 4000 غرامات من العسل!

ويظل العلماء عاجزون عن فهم كيفية إهتداء النحل الى هذا التصميم والبناء خاصةً وأن دماغ النحله صغير جدًا بحيث يصعب إفتراض حدوث عملية تعلم ذاتي وتخزينها في الذاكرة (وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)[1]

فمَن علّم النحل كيفية تقسيم الوحدة الكبيرة إلى عيون صغيرة بالحجم اللازم وبطريقة هندسية محكمة؟ ومَن علّمها استخدام المواد المتوفرة بقدر معين؟ ما هي ميزة الشكل السداسي

1) الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في أن تصميم خلايا النحل مصدره الوحي الإلهي، بقلم محمد سليم مصاروه صيدلي حاصل على درجة الماجستير، المصدر:

https://www.google.co.il/amp/amp.livescience.com/38242-why-honeybee-honeycombs-are-perfect.html

https://link.springer.com/article/10.1007%2Fs004540010071

http://www.buzzaboutbees.net/why-bees-use-hexagons.html

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عن الشكل الثلاثي والرباعي المتساوي الأضلاع؟ وكيف استطاعت النحل حساب كمية العسل في كل خلية، وكيف علمت أن بنية سطح الخلية السداسية هي الأمتن؟ وكيف عرفت أن الشكل السداسي هو الأنسب والأوفر من بين الأشكال الأخرى؟ وكيف تمكّنت النحل التي تعيش ستة أسابيع فقط، تنفيذ الحسابات الدقيقة والتطبيقات العملية؟ وكيف استطاعت ضبط المقاييس الحساسة التي يستحيل للإنسان أن يعيها بسهولة؟ وهل يمكن أن نصف أعمال النحل هذه بأنها "غريزة"، أم أنها توجيه إلهي؟[1].

قوله (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (70) انتقال لآية أخرى من آيات الله تعالى، ليتفكر الإنسان في أصل خلقه، وكيف أن الله تعالى هو الذي يتوفاه، فهو سبحانه القاهر لكل "الملوك" بالموت، وهو القاهر لكل من رزقه الله "الصحة والقوة" ليرده إلى "أرذل العمر"، كما قال سبحانه (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ) (يس/68)[2]، ولذلك كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من أراذل العمر، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

1) أسئلة طرحها أحد المتفكرين على الفيس، وهو Eng Omar Shartooh

2) الجهاز الوعائي القلبي: تصلُّب الأوعية وشرايين الدم هو التغيير الأكثر شيوعًا في نظام القلب والأوعية الدموية، الذي يتسبب في إرهاق القلب بالعمل لضخ الدم إليها. تتغير عضلات القلب للتكيُّف مع عبء العمل المتزايد. لن يتغير معدل ضربات القلب في أوقات الراحة، ولكن لن يزيد خلال الأنشطة بنفس القدر المعتاد له فيما سبق. تزيد هذه التغييرات من خطر ارتفاع ضغط الدم (الضغط المرتفع) وغيرها من مشاكل القلب والأوعية الدموية.

العظام والمفاصل والعضلات مع تقدم العمر، تميل العظام إلى التقلص في الحجم والكثافة، ما يضعفها ويزيد قابليتها للكسر. وقد تصبح أقصر بعض الشيء. تفقد العضلات القوة والتحمل والمرونة بشكل عام، وهي العوامل التي يمكن أن تؤثر على تناسقها واستقرارها وتوازنها.

الجهاز الهضمي: قد تؤدي التغيرات التركيبية المرتبطة بالعمر في الأمعاء الغليظة إلى حدوث الإمساك أكثر في البالغين الأكبر سنًّا. وتشمل العوامل المساهمة الأخرى عدم ممارسة الرياضة، وعدم شرب كمية كافية من السوائل، واتباع نظام غذائي منخفض الألياف. قد تساهم الأدوية مثل مدرّات البول، ومكملات الحديد الغذائية، وكذلك بعض الحالات المرضية مثل مرض السكر، أيضًا في التعرض للإمساك.

ﷺ كَانَ يَدْعُو أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْبُخْلِ وَالْكَسَلِ وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَفِتْنَةِ الدَّجَّالِ وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ)[1].

المثانة والجهاز البولي قد تصبح مثانتك أقل مرونة مع تقدمك في السن، ما ينتج عنه الحاجة إلى كثرة التبول. وربما يؤدي ضعف عضلات المثانة وعضلات قاع الحوض إلى صعوبة إفراغ المثانة تمامًا، أو يسبب فقدانك السيطرة على المثانة (سلسل البول). عند الرجال، يمكن أن تنتج عن تضخم البروستاتا أو التهابها صعوبة في إفراغ المثانة بالإضافة إلى الإصابة بالسلس البولي، وضمن العوامل الأخرى التي تؤدي إلى سلس البول: زيادة الوزن وتلف الأعصاب نتيجة للإصابة بداء السكري وتناوُل أنواع معينة من الأدوية وتناوُل المشروبات المحتوية على الكافيين أو المشروبات الكحولية.

الذاكرة ومهارات التفكير: يتعرض عقلك للتغييرات مع تقدمك في العمر الأمر الذي قد يكون لديه آثار طفيفة على ذاكرتك أو مهارات التفكير. على سبيل المثال، قد ينسى البالغون الأصحاء الأكبر سنًّا الأسماء أو الكلمات المألوفة، أو قد يجدون صعوبة أكبر في تعدد المهام.

العين والأذن: مع التقدم في العمر، قد تجد صعوبة في التركيز على الأشياء القريبة منك. وربما تصبح أكثر حساسية لوهج الضوء وتجد صعوبة التكيف مع مستويات الضوء المختلفة. يمكن أيضًا أن يؤثر التقدم في العمر على عدسة العين، ما يسبب ضبابية الرؤية (إعتام عدسة العين).

وقد تضعف حاسة السمع أيضًا. ويمكن أن تجد صعوبة في سماع الترددات العالية أو متابعة محادثة في غرفة مزدحمة.

الأسنان: قد تنسحب اللثة عن أسنانك. يُمكِن كذلك أن تتسبَّب بعض الأدوية، مثل الأدوية المستخدمة في علاج أمراض الحساسية والربو وارتفاع ضغط الدم وارتفاع الكوليسترول في الدم، في جفاف الفم. ونتيجةً لذلك، قد تُصبِح الأسنان واللثة أكثر عرضةً إلى حدٍّ ما للتسوُّس والعدوى.

الجلد مع التقدم في العمر، تضعف البشرة وتصبح أقل مرونة وأكثر هشاشة، وينخفض النسيج الدهني الموجود أسفل الجلد مباشرةً. قد تلاحظ أن إصابتك بالكدمات أصبحت أكثر سهولة. قد يجعل انخفاض إنتاج الزيوت الطبيعية بشرتك أكثر جفافًا. تصبح التجاعيد وبقع الشيخوخة والزوائد الصغيرة التي تسمى الزوائد الجلدية أكثر شيوعًا.

الوزن: يتباطأ قيام جسمك بحرْق السُّعرات (الأيْض) بتقدُّم عمرك. إذا قُمتَ بتقليل الأنشطة مع تقدُّم عمرك ولكنَّك داومتَ على تناوُل نفس المُعدَّل بصورةٍ عادية، فيزداد وزنك.

النشاط الجنسي مع التقدم في العمر، قد تتغير الاحتياجات الجنسية والأداء الجنسي. المرض أو الدواء قد يؤثران على قدرتك على الاستمتاع بالجماع. بالنسبة للنساء، يمكن أن يتسبب جفاف المهبل في جعل الجماع غير مريح. أما بالنسبة للرجال، فقد يصبح العجز الجنسي مصدرًا للقلق. فقد يستغرق حدوث الانتصاب وقتًا أطول، كما أنه قد لا يكون بالدرجة التي كان عليها سابقًا.

https://www.mayoclinic.org/ar/healthy-lifestyle/healthy-aging/in-depth/aging/art-20046070

1) رواه البخاري ج14 ص 310 رقم 4338

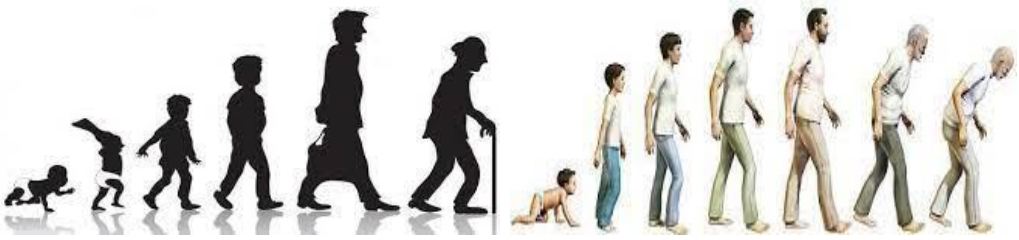

والتنكيس في الخلق لا يقتصر على تدهور الجسد والوظائف الحيوية وحسب، بل إننا لنجد تأثيره في العقل بصورة جلية، كما في قوله (لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ)، قال ابن عجيبة (ليصير إلى حالة شبيهة بحالة الطفولية، في نقصان العقل والنسيان وسوء الفهم، والمعنى: لئلا يعلم زيادة على علمه شيئًا)[1]، روى بن أبي حاتم من طريق السدي قال أرذل العمر هو الخرف)[2]، يعني يعود كهيئة الأولى في أو أن الطفولية، ضعيف البنية، سخيف العقل، قليل الفهم)[3]، بذلك يعلم الإنسان قدر نفسه فلا يتكبر على خالقه، ويستغفر الله.

قوله (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ) (71) وقد أبدع ابن عاشور حين قال (هذا من الاستدلال على أن التصرف القاهر لله تعالى، وذلك أنه أعقب الاستدلال بالإحياء والأمانة وما بينهما من هرم بالاستدلال بالرزق...ووجه الاستدلال به على التصرف القاهر أن الرزق حاصل لجميع الخلق، وأن تفاضل الناس فيه غير جار على رغباتهم ولا على استحقاقهم ؛ فقد تجد أكيس الناس وأجودهم عقلا وفهما مقترا عليه في الرزق، وبضده ترى أجهل الناس وأقلهم تدبيرا موسعا عليه في الرزق، وكلا الرجلين قد حصل به ما حصل قهرا عليه، فالمقتر عليه لا يدري أسباب التقتير، والموسع عليه لا يدري أسباب

1) البحر المديد ج3 ص 282
2) ابن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج8 ص 388
3) الخطيب التبريزي: مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح ج3 ص 628

تيسير رزقه، وذلك لأن الأسباب كثيرة متوالدة ومتسلسلة ومتوغلة في الخفاء حتى يظن أن أسباب الأمرين مفقودة، وما هي بمفقودة ولكنها غير محاط بها) [1].

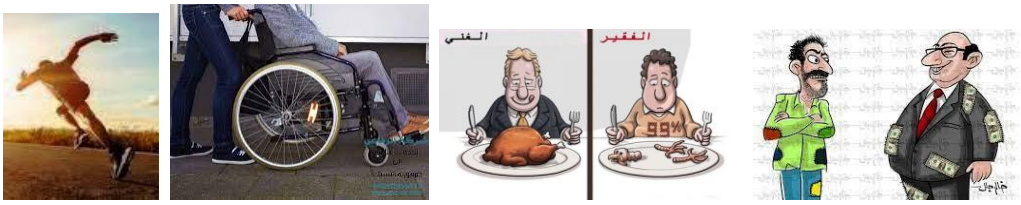

قوله (فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ) قال الشنقيطي أي (إذا كنتم لا ترضون بإشراك عبيدكم معكم في أموالكم ونسائكم، فكيف تشركون عبيدي معي في سلطاني!)[2]، فهذا مثل ضربه الله للكفار، فالله فضل بعض الناس على بعض في الرزق، ومن مظاهر هذا التفضيل أن جعل هناك مالكين وأناس غيرهم مملوكين، فإذا كان المالكين لا يرضون لأنفسهم أن يكون المملوكون شركاءهم فيما رزقهم الله من الأموال والنساء وجميع نعم الله، فكيف بهم يقبلون أن ينسبوا لله شريكا له في حكمه وأمره ونهيه، فينصاعون لأوامره ولا ينصاعون لله، أي (أنهم مع هذا يجعلون الأصنام شركاء لله في حقه على خلقه الذي هو إخلاص العبادة له وحده) [3].

1) التحرير والتنوير ج13 ص 171
2) أضواء البيان ج2 ص 411
3) أضواء البيان ج2 ص 411

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله (فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) يعني – أَفَهُمْ فِي الرِّزْقِ مُسْتَوُونَ؟ لاَ[1]، ونظير ذلك قوله سبحانه (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (28).

قوله (أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) قال الشنقيطي (إنكار من الله عليهم جحودهم بنعمته ؛ لأن الكافر يستعمل نعم الله في معصية الله، فيستعين بكل ما أنعم به عليه على معصيته، فإنه يرزقهم ويعافيهم، وهم يعبدون غيره)[2].

قوله (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) إشارة قرآنية إلى ما تفضل الله تعالى به على البشر من نعمة الزواج، قال رسول الله ﷺ (الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ)[3]، ليأنس الرجل بامرأته وتأنس المرأة برجلها كما في قوله (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ)، وكونها مخلوقة من ضلع الرجل ثابت بقول النبي ﷺ (اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ)[4].

يقول الدكتور لؤلؤة (فالعلاقة الزوجية من أجمل أنواع السعادة وأهدئها لأن الزوجين يعيشان في الإسلام تحت ظل وكنف الزواج المستقر الهادئ، وعواطفها تنعكس تلقائيًا فتمتزج مع بعض لتكون عاطفة واحدة وشعوراً واحدًا وما أجمل المشاعر المزدوجة التي يقوي بعضها بعضها، والتعبير القرآني (

1) أيسر التفاسير ج1 ص 1972
2) أضواء البيان ج2 ص 412
3) رواه مسلم ج7 ص 397 رقم 2668
4) رواه البخاري ج 11 ص 112 رقم 3084

خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) تعبير عمَّق معنى الحب والوئام بين الزوجين، ولقد كانت هذه الآية الكريمة بمثابة إعلان ضخم على واجهة عش الزواج لتؤكد لكل قارئ وسامع أهمية الرجل للمرأة والمرأة للرجل، وأنهما عندما يقترنان ببعض يمثلان القطرة من المطر التي تثري الأرض وتنبت بالرياحين)[1].

قوله (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) وتلك نعمة أخرى يمن الله بها على عباده أن رزقهم بنين وحفدة، كما في قوله (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)(الكهف/46)، ونعمة البنين تلين القلب من القسوة، وتحيل الغضب إلى رأفة، وتجعل المحزون سعيدا، ألا ترى أن امرأة فرعون لما رأت موسى (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (القصص/9)، فالنظر في وجه الطفل يجعل العين تقر به، وكذلك الأحفاد، فعن عبد الله قال: كان النبي ﷺ يصلي فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره فإذا أراد أن يمنعوهما أشار إليهم أن دعوهما فلما صلى وضعهما في حجره ثم قال من أحبني فليحب هذين)[2].

1) د لؤلؤة القضيبي، فضيلة تلاوة القرآن وحملته ج1 ص10، نقلا من عبد المؤمن النعمان ص88 ــ، عمر الأشقر: نحو ثقافة إسلامية ص 216

2) رواه النسائي ج5 ص 50 رقم 8170 وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة المجلدات الكاملة ج1 ص 311 رقم 312، أخرجه أبو يعلى في " مسنده " (60 / 2) عن عبد الله بن مسعود قال: فذكره مرفوعا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعن أَبِي بُرَيْدَةَ يَقُولُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُنَا إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الْمِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ صَدَقَ اللَّهُ (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)، فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا) [1].

قوله (وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) خص الله بهذه النعمة المؤمنين، لأنهم المخاطبون بقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) [البقرة: 172]، قال رسول الله ﷺ (مثل المؤمن مثل النحلة لا تأكل إلا طيبا ولا تضع إلا طيبا)[2]، وقال رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)، وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)[3]، فالمؤمن لا يقع على الجيف النتنة مثل الذباب، بينما الكافر فإنه لا يأكل الطيبات ويتيمم الخبيث.

1) رواه الترمذي ج12 ص 244 رقم 3707

2) رواه النسائي ج6 ص 376 وابن حبان في صحيحه وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص 354 رقم 355

3) رواه مسلم ج5 ص 192 رقم 1686

قال ابن عجيبة (التذكير بهذه النعمة يتوجه إلى خصوص هذه الأمة، وهم الفقراء المتوجهون إلى الله، فهم قليل في كل زمان، مستضعفون في كل أوان، حتى منَّ الله عليهم بالنصر والعز والتأييد، والغالب عليهم شكر هذه النعم، لَمَا خصهم به من كمال المعرفة[1].

قوله (أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) (72) فهذا الاستفهام الاستنكاري جاء بعدما أشارت الآيات إلى توسعة الله تعالى على الإنسان في الرزق، وقد منَّ الله عليه بنعمة الزواج والإنجاب حتى أنجب أولاده الذين من صلبه أحفاد له، فأضحت له عائلة ،أصبح جدا له ابناء وأحفاد، فكيف يأتي الكفر بكل هذه النعم، ونظير ذلك قوله (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (190).

بل ويتقدم الكفر بنعم الله الإيمان بضدها، أي الإيمان بحرية الزنا، وإقامة علاقات جنسية لا حدود لها، فالإسلام عالج ما كان عليه الناس في الجاهلية حيث كان الزنا منتشرا بطريقة متدرجة، حيث أشار إلى هذه العلاقة الزوجية، وأنها في إطارها الطبيعي تعد من الطيبات التي أحلها الله، ما يعني أن ما بخلافه ليس من الطيبات، حتى إذا جاء التشريع بتجريم الزنا انتبه الناس لذلك، فلم يشذ منهم أحد، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا مَهْ مَهْ فَقَالَ ادْنُهْ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ فَجَلَسَ قَالَ أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ

1) البحر المديد ج2 ص 238

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لِأُمَّهَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ قَالَ أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ قَالَ لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ قَالَ وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ قَالَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ)[1].

قوله (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (73) ونظيره قوله سبحانه (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ) (الأعراف/192)، (وإنه لعجيب أن تنحرف الفطرة إلى هذا الحد، فيتجه الناس بالعبادة إلى ما لا يملك لهم رزقًا وما هو بقادر في يوم من الأيام، ولا في حال من الأحوال، ويدعون الله الخالق الرازق، وآلاؤه بين أيديهم لا يملكون إنكارها، ثم يجعلون لله الأشباه والأمثال!).

قوله (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ..)(74) ونظير ذلك قوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى/11)،قال الإمام البغوي يعني (الأشباه، فتشبهونه بخلقه، وتجعلون له شريكا، فإنه واحد لا مثل له)[2]، قال القرطبي أي (الأمثال التي توجب الأشباه والنقائص؛ أي لا تضربوا لله مثلا يقتضي نقصا

1) رواه أحمد ج45 ص 180 رقم 21185 وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة المجلدات ج1 ص369
2) تفسير البغوي ج5 ص 32

وتشبيها بالخلق، والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير، جل وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا)[1].

قوله (..إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (74) (تعليل للنهي يراد منه إنّ الله يعلم كيف يضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون)[2].

قوله (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ، وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (75) قال ابن القيم (هذا المثل ضربه الله سبحانه لنفسه وللأوثان، "فالله سبحانه "هو المالك لكل شيء ينفق كيف يشاء على عبيده سرا وجهرا وليلا ونهارا يمينه ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، "والأوثان" مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لي ويعبدونها من دوني مع هذا التفاوت العظيم والفرق المبين)[3].

1) تفسير القرطبي ج10 ص 119

2) الكشاف ج3 ص 378

3) هذا قول مجاهد وغيره وقال ابن عباس هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ومثل المؤمن في الخير الذي عنده ثم رزقه منه رزقا حسنا فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره سرا وجهرا، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء لأنه لا خير عنده فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال ابن القيم (وهذا القول أشبه بالمراد فإنه أظهر في بطلان الشرك وأوضح عند المخاطب وأعظم في إقامة الحجة.. ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموجد – الغني – كمن رزقه منه رزقا حسنا، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء)[1].

قوله (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (76) قال ابن القيم (وهذا المثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يُعبد من دونه أيضا، فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق بل هو أبكم القلب واللسان قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد فإن أمره بالعدل)[2].

وقوله (أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ[3] عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ) فالأبكم لا يتكلم، فعندما يرسله أحد ليشتري شيئا أو يتعامل مع الناس لا يستطيع أن يفعل شيئا، لأنه فاقد طريقة التواصل مع الآخرين والناس لا يفهمونه، فالناس يغبنون بعضهم البعض وكم كاملي الحواس وقد غبنوا، فما بالك بمن كان غير كامل الحواس والإدراك فيغبن بكل سهولة.

---

1) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 18

2) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 15

فهذا ما نبه عليه المثل وأرشد إليه فذكره ابن عباس منبها على إرادته لا أن الآية اختصت به فتأمله فإنك تجده كثيرا في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن

3) أي أن سيده ينفق عليه كسوته ومأكله ومشربه

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ يُخْدَعُ فِي الْبُيُوعِ فَقَالَ إِذَا بَايَعْتَ فَقُلْ لَا خِلَابَةَ)[1] أي لا خديعة أي لا يحل لك خديعتي أو لا يلزمني خديعتك [2]، وبذلك يحتفظ بحقه في الفسخ بحجة ضعف إدراكه أو قلة خبرته لمدة من الزمن، بعدها يلزمه البيع متى مضت المدة و لم يفسخ البيع، كمن يبيع شيئا أو يشتري بشرط أن يحتفظ بحقه في السؤال عن سعر السوق خلال فترة معينة.

فالآية تصور استعانة رجل في قضاء حوائجه برجل عنده أبكم يخدعه الناس ويغبنونه، لكنه مصر على أن يرسله لقضاء مصلحته، فيغبنه الناس عندما يجدون أن معه مال سيده، ولا يستطيع أن يتكلم وليس بقادر على إدراك شيء ولا يدرك من يأخذ ماله، وهكذا شأن الذي يستعين بغير الله في قضاء حوائجه ما أخيبه وما أخسره وما أخرقه، فالعيب ليس على هذا الأخرق الذي لا يتكلم ولا يقدر على شيء، ولكن العيب على من أرسله ليقضي له حاجته، فهو أخرق منه.

1) رواه البخاري ج21 ص 302 رقم 6449
2) الديباج على مسلم ج4 ص 147

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) عن مجاهد قال (الحق) وكذلك....وإذا كان سبحانه هو الذي جعل رسله وأتباعهم على الصراط المستقيم في أقوالهم وأفعالهم، فهو سبحانه أحق بأن يكون على صراط مستقيم في قوله وفعله وإن كان صراط الرسل وأتباعهم هو موافقة أمره، فصراطه الذي هو سبحانه عليه هو ما يقتضيه حمده وكماله ومجده من قول الحق وفعله) [1]، فالذي يريد أن يتعرف على منهج الله لن يبذل جهدا، لأنه هو الحق وهو الصراط المستقيم، فكل ما وافق الحق فثم شرع الله.

فعَنْ وَابِصَةَ الْأَسَدِيِّ قَالَ أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ لَا أَدَعَ شَيْئًا مِنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ.. فَقَالَ يَا وَابِصَةُ أُخْبِرُكَ أَوْ تَسْأَلُنِي قُلْتُ لَا بَلْ أَخْبِرْنِي فَقَالَ جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ نَعَمْ فَجَمَعَ أَنَامِلَهُ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِنَّ فِي صَدْرِي وَيَقُولُ يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ)[2].

قوله (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) والغيب عالم آخر لا يعلمه إلا الله، فهو كل ما يغيب عنك في عالم الشهادة، وكل أمور الآخرة غيب، ولكن الله يستشهد لعالم الغيب بعالم الشهادة، فما سبق من آيات الله الكونية هو دليل على ما يذكره الله من أمور غيبية كأمر قيام الساعة ولا ريب.

1) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 15

2) رواه أحمد ج29 ص 533 رقم 18006 وصححه الألباني: صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 151

قوله (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (77) قال الشوكاني (اللمح: النظر بسرعة، ولا بدّ فيه من زمان تتقلب فيه الحدقة نحو المرئي)، ويقال: (إن الساعة لما كانت آتية ولا بدّ جعلت من القرب كلمح البصر) [1]

(وكل زمان قابل للتجزئة، ولذا قال: (أَوْ هُوَ) أي: أمرهما (أَقْرَبُ) وليس هذا من قبيل المبالغة، بل هو كلام في غاية الصدق، لأن مدّة ما بين الخطاب وقيام الساعة متناهية، ومنها إلى الأبد غير متناه، ولا نسبة للمتناهي إلى غير المتناهي) [2].

وقال (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قيل (لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها، لأنه يقول للشيء كن فيكون) [3].

قوله (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا...)(78) فالطفل حين يولد لا يعرف شيئا، حتى حلمة أمه لا يدري أين هي، فتعلمه الأم كيف يلتقم الثدي، ويبدأ التعارف عليها وتتعرف

1) فتح القدير للشوكاني ج4 ص 247
2) فتح القدير للشوكاني ج4 ص 247
3) فتح القدير للشوكاني ج4 ص 247

عليه بعد عدة محاولات فاشلة في التقام الثدي ثم هو يتعلم الأصوات من حوله، حتى يعتاد الأصوات بعد أن كان يفزع من أقل صوت، ثم يتعلم الرفس بقدمه ثم التقلب على بطنه ثم الزحف رويدا رويدا حتى إذا أتم سنة أو أقرب أو تجاوزها بدأ المشي ثم هو يبدأ التخاطب مع الناس بالإشارة والتمتمة، ثم يبدأ بالكلام بعد ما يمر عليه سنة ونصف تقريبا أو سنتين، ثم يبدأ في تعلم المفردات والجمل ويبدأ التعبير عن نفسه...وهكذا حتى يصير ملكا ثم يعود كهلا ويبدأ في الانتكاسة حتى يصير ترابا.

قوله (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)(78) فالإشارة إلى السمع يعني الحاسة التي تؤدي الأذن وظيفتها، والأبصار تعني الحاسة التي تقوم بوظيفتها العين، ولكي تقوم هاتين الحاستين بوظيفتهما لابد من أداء معين للأجهزة فيهما حتى تحس الأذن بالصوت والعين بالرؤية.

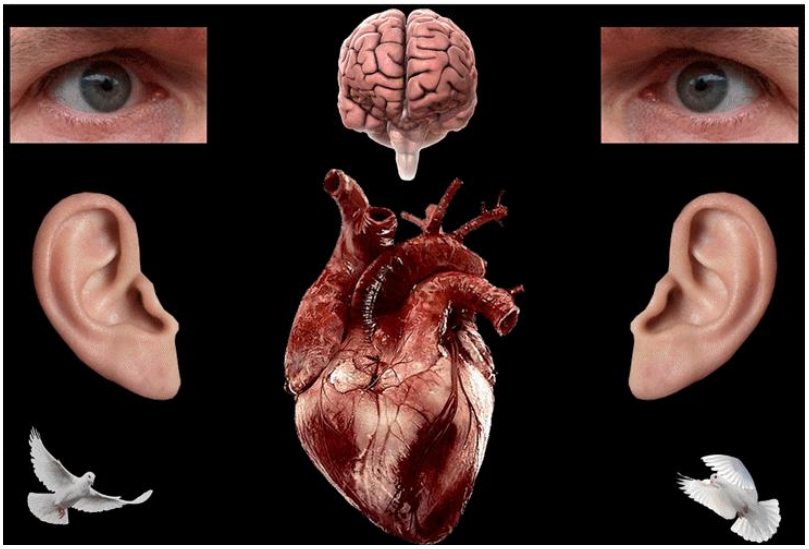

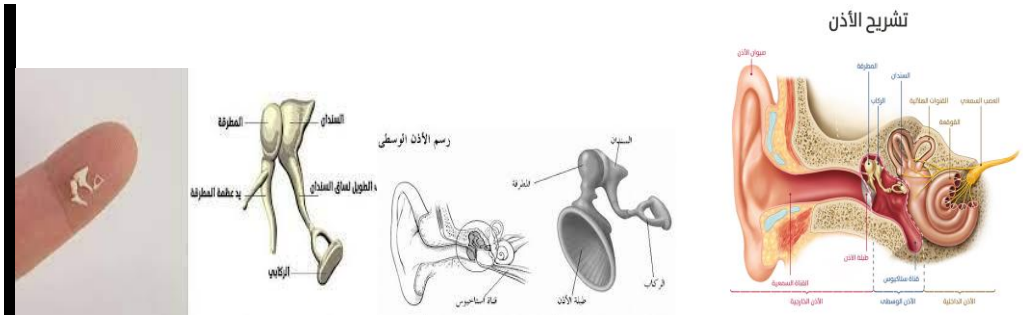

تعمل حاسة السمع بمساعدة القسم الخارجي من الأذن المسؤول عن جمع الأمواج الصوتية لكي تمر بقناة الأذن نحو طبلة الاذن، وعندما تصطدم الأمواج الصوتية بطبلة الأذن تنتج ذبذبات، هذه الذبذبات تحرك ثلاث عظام صغيرة مجاورة لها وموجودة بالأذن الوسطى؛ عظمة المطرقة، ثم عظمة السندان، وعظمة الركاب، عظمة الركاب بدورها تضغط على النافذة البيضاوية التي تفصل بين الأذن الوسطى المليئة بالهواء والأذن الداخلية المليئة بالسائل.

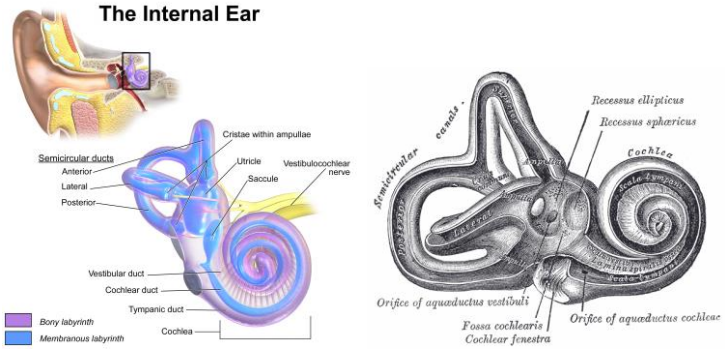

وفي الأذن الداخلية تتواجد قوقعة الأذن الضرورية لعمل حاسة السمع، وهو أنبوب ملفوف مليء بسائل، حيث تحول قوقعة الاذن الذبذبات المنقولة على يد العظام الصغيرة الى أمواج ضغطية تتراوح في مداها، حيث أنّ ترددات عاليّة تؤدي لتفعيل ذبذبات بجزء معيّن من القوقعة، بينما تؤدي الترددات

المنخفضة لتفعيل جزء آخر بنفس الطريقة، بالاضافة الى السائل تحتوي قوقعة الأذن على أهداب وهي عبارة عن أطراف أعصاب تشبه الشعر بشكلها، تتمايل وفق الذبذبات فتنتج رسائل كهربائية تُبث الى الدماغ عن طريق العصب السمعي، حيث تعتمد حاسة السمع في عملها على منطقة في الدماغ تدعى القشرة السمعية وهي مسؤولة عن إدراك الاصوات.

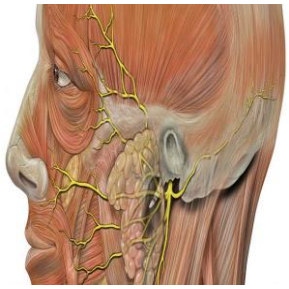

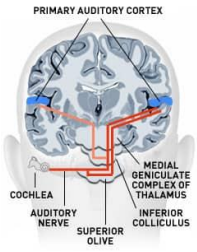

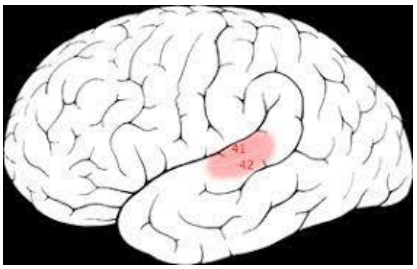

تعتمد حاسة السمع في عملها على أجزاء الاذن الثلاثة: الاذن الخارجية، الاذن الوسطى والاذن الداخلية. ومن ثم على الاعصاب السمعية ثم الدماغ، لهذا السبب أي عطل بإحدى الأجزاء الصغيرة أو الكبيرة قد يضر بقدرة الانسان على السمع.

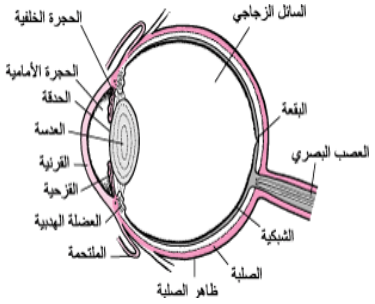

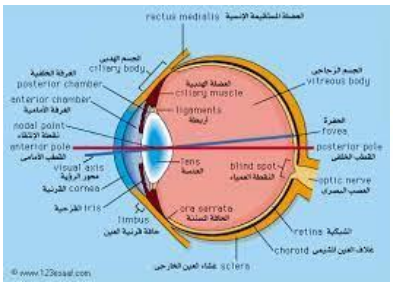

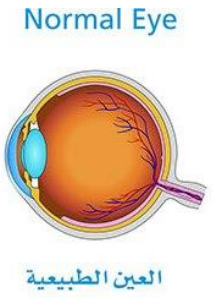

أما حاسة البصر فالإنسان يرى الأشياء بسبب انعكاس الضوء منها على العين؛ حيث تستقبل "القرنيّة" الضوء، ويتحكّم "بؤبؤ العين" في حجم الضوء الداخل حيث يتسع في الظلام ليستطيع تجميع أكبر قدر من الضوء بينما يضيق في الضوء الساطع للتقليل من الضوء الداخل، ثمّ يسقط هذا الضوء على العدسة، وبعدها ينفذ إلى الشبكية

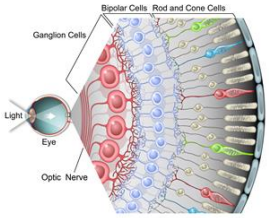

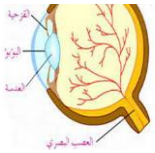

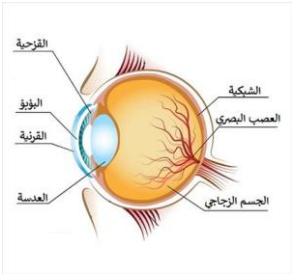

وتمتلك الشبكية ملايين الخلايا العصبيّة الدقيقة الحساسة للضوء؛ حيث تُوفّر هذه الخلايا الرؤية الحادّة في الضوء الساطع وتكتشف الألوان والتفاصيل، كما أنّها المسؤولة عن الرؤية المحيطيّة أو الجانبية للعين، وتُحوّل أشعة الضوء إلى نبضاتٍ كهربائيةٍ ينقلها العصب البصري إلى المخ، وهناك يتم تحليل البيانات والخروج بالصور، ومن ثمّ تتمّ العمليّة العكسيّة التي ينقل فيها العصب البصري الصورة إلى العين.

أما "القلب" هو عضلة مجوفة في الإنسان والحيوان، وظيفته ضَخُّ الدّم عبر الأوعية الدموية إلى خلايا الجسم المختلفة لتزويدها بالغذاء والأوكسجين، ويساعد في التخلص من الفضلات الناتجة عن عملية الأَيْضِ

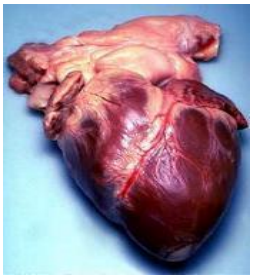

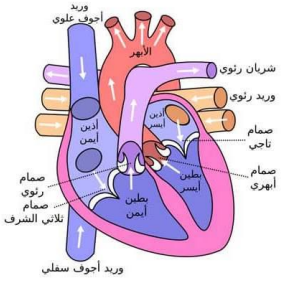

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولأهميته لحياة الإنسان ضرب الله به المثال للإحساس والشعور والتفاعل، فكأن الذي يشعر بآيات الله كالحي، وذاك الذي لا يشعر بها كالذي توقف قلبه عن العمل، كما في قول النبي ﷺ (مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ) [1].

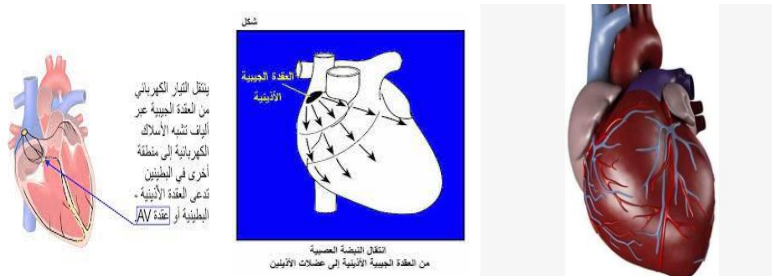

أما الأفئدة فهي الحاسة التي يقوم بها عضو القلب، ما يعني النبضات الكهربائية التي تطلقها العقدة التي في الأذين، ولذلك فإن الفؤاد: هو مركزَ العاطفة والمشاعر والرغبات، لذلك قال تعالى (وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (القصص/10)، فلكل فؤاد قلب كما في قوله (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) (النجم/11)، أي ما رآه بقلبه، وليس لكل قلب فؤاد، كما في قوله سبحانه (إنما لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)، أي أصبح القلب بلا شعور فلم يسميه القرآن فؤادا، وإنما سماه قلبا لفقد الإحساس.

قوله (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ كُلُّ سُلَامَى[2] عَلَيْهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ يُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ يُحَامِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ وَدَلُّ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ)[3].

1) رواه البخاري ج20 ص 23 رقم 5928
2) قال ابن بطال: شرح صحيح البخاري ج5 ص 85 (السلامى عظام الأصابع والأكارع) أي عظام المفاصل
3) رواه البخاري ج10 ص 17 رقم 2677

أي لعل الإنسان يدرك فضل ربه عندما ينعم عليه بهذه الحواس فيشكره ويستعمل حواسه فيما خلقها الله له، فيسمع الذكر ويتدبره، ويرى ما أحله الله له ويتفكر في آياته، ويبصر بقلبه ما رآه فؤاده، فيعترف بنعمة ربه ويشكره.

يقول النبي ﷺ (سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ قَالَ وَمَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ)[1].

قوله (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(79) الخطاب لمن يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا، فالآية تحضهم على التفكر كيف يمسك الله الطير في جو السماء، وكيف يرزقها، إن اكتشاف الإنسان لنظرية الطيران والكثافة لهي نتيجة لتأمل مستمر في الطير وقد سخرها الله تعالى للطيران بكيفية معينة في جو السماء، سبحان الذي أمسكها وسبحان الذي هيأ لها ذلك.

حيث تتميز الطيور الطائرة بهيكل عظمى خفيف وقوى فى ذات الوقت، كما أن وجود زوجين من الأجنحة يستطيع الطائر العلو والتحليق حيث تنقسم عملية الطيران عند الطيور لمرحلتين المرحلة الأولى

1) رواه البخاري ج19 ص 363 رقم 5831

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهى عملية الإقلاع يعني ارتفاع الطائر من سطح الأرض ليبدأ التحليق في الأفق، وهذه العملية تتوقف على حجم الطائر وكتلته، فالطيور الأخف تبدأ بالقفز لأعلى قليلًا ومع إستمرار تحليق جناحيها تتم عملية الاقلاع ومن ثم الطيران، والأكبر حجما تحتاج لان تقوم بالركض فترة حتى تصل لسرعة معينة ومن ثم تساعدها حركة جناحيها فى الارتفاع والاقلاع، والمرحلة الثانية هي مرحلة التحليق في السماء بعد الاقلاع لمسافات طويلة، حيث يستمر الطائر فى تحريك جناحيه لأعلى وأسفل وعن طريق ضغط الهواء أسفل الأجنحه فيرتفع للأعلى.

فالله سبحانه خلق الطيور بهيئة تساعدها على الطيران، حيث تخرج من ساق الريشة شعيرات دقيقة، كل شعيرة متصلة بما يجاورها من شعيرات، بواسطة شعيرات أخرى أدق من الأولى، وكل شعيرة تضم المئات من الأوبار الشديدة الدقة، تصل كل أجزاء الريشة مع بعضها لتكون سطحا مصمتا وقويا وفي غاية الخفة من ناحية الوزن

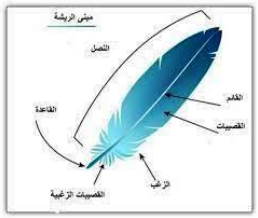

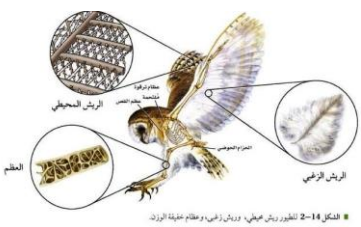

ويكفي أن نعلم أن ريشة الحمامة تحوي مئات الآلاف من الشعيرات الدقيقة، وملايين من الشعيرات الأشد دقة، وأن أجنحة طائر بحجم البجعة مزودة بما يقارب 25 ألف ريشة (فقط!)، ورغم ذلك فإن عظام الأجنحة وعظام الذيل، التي يتصل بها معظم الريش، خفيفة جدا وقصيرة جدا بالنسبة لمساحة الجناح.

وحتى يظل الطير محمولا في الهواء أثناء الطيران، لا بد من أن يكون ضغط الهواء أسفل الجناح أكبر منه أعلاه، وهذا يحققه التصميم الهندسي لمقطع الجناح، فهو مستو تماما من أسفله عند نشره، لكنه محدب من أعلاه، مما يؤدي إلى أن يتبعثر الهواء أعلى الجناح بسبب التحدب فيقل ضغطه عن أسفله، فيرتفع الطير في الهواء ويحافظ على ارتفاعه، وأجنحة الطائرات التي صممها الإنسان اقتبست (بل نسخت) تصميم مقطعها من تصميم أجنحة لطيور.

أما ذيل الطير فهو بمثابة جهاز التحكم الذي يساعد على كبح سرعته أثناء الهبوط وزيادتها أثناء الإقلاع وتسهيل انسيابه في الهواء أثناء السير في الهواء، ناهيك عن دوره في تغيير مساره أفقيًا أو عموديًا.

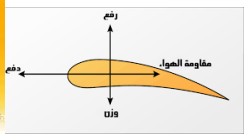

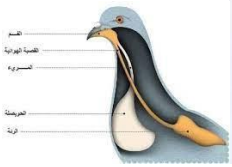

ومن عجائب الإبداع الإلهي لأجسام الطيور أن مركز الثقل في نقطة وسطى من جذعه، تقع بين جناحيه، وحوله يتموضع معظم وزنه، فرأس الطير صغير جدًا بالنسبة لجسمه، وليس له أسنان ولا أنف، وعندما يلتقط طعامه يتم إرساله فورًا إلى حوصلة بالقرب من مركز ثقله، هي التي تقوم بطحن الطعام

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتهيئته للهضم، كما أن الطير لا مثانة له لتخزن البول في مؤخرة جسمه، بل يخرج البول وغيره من الفضلات من جسم الطير فور تشكلها حتى لا يشكل خزنها عبئا على مركز ثقله من ناحية الوزن.

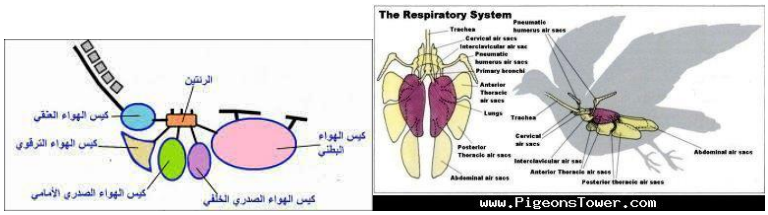

وتمتلك الطيور جهاز تنفس فريدا عجيبا يختلف عن أجهزة الحيوانات البرية كالثديات والزواحف، فهو مصمم ليتلاءم مع حاجتها أثناء الطيران، فتستخلص من الهواء أكبر كمية ممكنة من الأكسجين، لأنها عندما تحلق في الفضاء الشاهق، تنخفض كثافة الهواء، ويقل الأكسجين فيه، ويتم ذلك بواسطة جيوب هوائية موزعة في كل الأجزاء المهمة من جسم الطائر، ولا يخفى أن القوة تحتاج لطاقة، وهذا ما توفره نوعية غذاء الطيور، التي تتميز بسعرات حرارية عالية، سواء كانت من الجوارح التي تتغذى على اللحوم، أو من الحمائم التي تتغذى على الحبوب.

قوله (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا) لما ذكر البيوت المسكونة امتنَّ بجعلها سكنًا يسكنون فيها من تعب الحركات) [1]،

يريد الإسلام البيت مكانًا للسكينة النفسية والاطمئنان الشعوري، هكذا يريده مريحًا تطمئن إليه النفس وتسكن وتأمن سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض، ويسكن

1) مجموع فتاوى بن تيمية في التفسير ج4 ص 212

شبكة الألوكة - قسم الكتب

من فيه كل إلى الآخر، فليس البيت مكانًا للتراع والشقاق والخصام، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام، ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمته، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)(النور:28)، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه، فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان.

وعَنْ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ السَّاعِدِيَّ أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ فِي جُحْرٍ فِي بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِدْرًى يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْتَظِرُنِي لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّمَا جُعِلَ الْإِذْنُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ)[1]، ولا يقتحمه أحد بغير حق باسم السلطان، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب، ولا يتجسس أحد على أهله في غفلة منهم أو غيبة فيروع أمنهم، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ مَنْ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ)[2]، ويخل بالسكن الذي يريده الإسلام للبيوت،وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا اطَّلَعَ مِنْ بَعْضِ حُجَرِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ إِلَيْهِ بِمِشْقَصٍ أَوْ مَشَاقِصَ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَخْتِلُهُ لِيَطْعُنَهُ)[3].

قوله: (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ) (جعل لهم بيوتًا أخرى يحملونها معهم ويَستَخفُّونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم، فذكر البيوت الثقيلة التي لا تحمل والخفيفة

1) رواه مسلم ج11 ص 112 رقم 4013
2) رواه مسلم ج11 ص 115 رقم 4016
3) رواه مسلم ج11 ص 114 رقم 4015

التي تحمل) [1]، قال القاسمي (أي: بيوتًا أخرى وهي الخيام والفساطيط والقباب المتخذة من الجلود نفسها، أو من الوبر والصوف والشعر أيضًا).

الظنع والإقامة: أي في الحل والترحال، الظنع والإقامة، حيث يسهل إقامتها ويسهل جمعها ونقلها.

قوله (وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)(80) فنعمة الأثاث تتم بها النعمة من نعمة السكن، حيث الأرائك والسرائر والوسائد.

1) مجموع فتاوى بن تيمية في التفسير ج4 ص 212

قوله (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا) فالظلال نعمة لا يفقهها إلا إذا قورنت بالمكان العاري للشمس، فالإنسان لا يتحمل السير في الصحراء دون شيء يظلله وإلا أصابه الجفاف ثم الموت بسبب ضربة الشمس.

قوله (وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا) فثمة أناس يعشقون حياة الجبال، بل ويتأقلمون عليها، ولا يرغبون في حياة المدن، ولا حتى الرعي والبدو، وهؤلاء الناس لهم صفات تختلف عن غيرهم من حيث التأقلم والغذاء وهكذا، يقول النبي ﷺ (يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ)[1].

1) رواه البخاري ج1 ص 31 رقم 18

قوله (وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ)(81) فحينما نتذكر آدم عليه السلام لما بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ)، وقد تطور لباس الإنسان فأضحي ينسج الخيوط لتصير قماشا يصنع منها السرابيل والقمصان، بل وينسج الحديد فيصنع منه قمصان الدروع ونحو ذلك للوقاية من أسهم الأعداء، وقد علم الله الإنسان ذلك، قال تعالى (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ) (ص/11) لتكون فتحات القميص ضيقة فلا تنفذ منها السهام.

قوله (كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) أي عندما يذكرنا الله بنعمة الزواج والبنين والأحفاد والسكن والأثاث والظلال والحل والترحال كل ذلك ويضم إليها نعمة الملبس، ومن قبل ذلك يذكرهم

بالطيبات من الطعام والثمرات كاللبن والتمر والعنب والعسل، فإنه يكون سبحانه قد أتم نعمته على عباده في الدنيا فهل لهم بعد ذلك سبيل لشكره.

قوله (لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) أي: (تعرفون رب هذه النعم. فتوحّدوه، وتخلصوا له بالعبادة)[1] أي (رجاء أن تسلموا له قلوبكم ووجوهكم فتعبدوه وحده) [2]، وذلك أول مراتب التسليم، وآخرها التسليم المطلــق، بمعنى الاحتكام لشرع الله كما في قوله (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (الأحزاب/65).

1) أبو الليث السمرقندي ج2 ص 478

2) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 315

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المبحث السادس
شهادة الرسول على أمته حال تلبسهم بالعذاب يوم القيامة

قال تعالى {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89)}

انتقلت الآيات من عرض العديد من النعم التي أنعم الله بها على عباده والتفتت للذي تولى عنها وأعرض لا عن جهل بها، بل إنه ليعرف نعمة الله عليه ولكنه يجحدها نكرانا واستكبارا، هؤلاء القوم يأتي حسابهم يوم القيامة على ذلك، ولأن الله تعالى يعاملهم بالعدل فإنه يقيم محكمة إلهية، ويأتي بالرسول شهيدا عليهم، فيشهد الرسول أنه بلغ الأمانة وأدى الرسالة، قَالَ قتادة: قوله (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) (84)شهيدها نبيها عَلَى أنه قد بلغ رسالات ربه[1]، عندئذ تنقطع أعذار الكافرين، وقد شهد عليهم نبيهم، (ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) حيث لا تقوم لهم حجة ولا شفاعة، ولا يقبل

1) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 108

منهم عتب ولا استرضاء، فيصدر الحكم الإلهي حيث يرون العذاب يشاهدونه أول مرة وقد كانوا يكذبون به، بل ويستعجلون وقوعه استهزاءا برسولهم، فاليوم يشاهدونه رأي العين، ولما في رؤية العذاب من عذاب حسي فإنه يتألون فلا يخفف عنهم ولا يؤجل، فهم يتلبسون به حال مشاهدته ورؤيته، ثم لا يلبثون حتى يذوقونه بعد أن عاينوه، فيرون في النار من كانوا يعظمونهم مع الله، ويعتمدون عليهم، ويسألونهم ويعبدونهم كشركاء مع الله، حيث يشيرون إليهم بأصابع الاتهام (رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ)، فيفزع هؤلاء المعبودون ويردون عليهم إتهامهم (فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ)، ينفون عن أنفسهم التهمة، مثلما يتبرأ الشيطان ممن كانوا يعبدونه من دون الله، (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (إبراهيم/22)، وعندئذ يعلم الجميع أن الأسباب التي كانوا يتعلقون بها في الدنيا قد انقطعت، وليست لها قوتها ولا فاعليتها، وأن الأمر يومئذ لله، عندئذ يعلنون استسلامهم له، (وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ) أي: استسلموا لحكمه – يومئذ-، بعد أن تكبروا عنه في الدنيا [1]، هنا يخيب أملهم أن تكون عبادتهم الشركية التي كانوا يقدمونها للشركاء المزعومين تقربهم إلى الله، ولذلك يقول سبحانه (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) [النحل/87]، أي: لم تنفعهم عبادتهم بشيء يوم القيامة، و لم تقربهم من الله كماكانوا يعتقدون في الدنيا، كما قال تعالى: (وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ....) [يونس/18]، وكقوله: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (الزمر/2)، بل كانت عبادتهم للشركاء سبب في إبعادهم عن الله، فحقيقة عبادتهم لهم هي صد الناس عن سبيل الله

1) البحر المديد ج3 ص 290

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بإشغالهم بعبادة غيره، والتقرب للشركاء دون التقرب إلى الله، فهؤلاء ولأنهم ضالون مضلون يزدهم الله عذابا فوق العذاب نظير إفسادهم في الأرض، كما في قوله (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (العنكبوت/13)، والنبي محمد ﷺ يأتي يوم القيامة بشهادة خاصة على أمته، (وجئنا بك شهيدًا على هؤلاء)، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ اقْرَأْ عَلَيَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ قَالَ نَعَمْ فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) قَالَ حَسْبُكَ الْآنَ فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ)[1]، فأمة النبي محمد ﷺ ممتدة إلى يوم القيامة..والرسول شهيدا علي من عاصره منهم، ومن جاءوا من بعده، لأنه أخلف بعده أصحابه منهم أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ)[2]، قال النووي (اختلف تفسير العلماء للمراد بمحدثون فقال بن وهب ملهمون وقيل مصيبون) [3]، قال العلماء (فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّ الْإِلْهَام حَقّ وَأَنَّهُ وَحْي بَاطِن ، وَإِنَّمَا حُرِمَهُ الْعَاصِي لِاسْتِيلَاءِ وَحْي الشَّيْطَان عَلَيْهِ ، قَالَ وَحُجَّة أَهْل السُّنَّة الْآيَات الدَّالَّة عَلَى اِعْتِبَار الْحُجَّة وَالْحَثّ عَلَى التَّفَكُّر فِي الْآيَات وَالِاعْتِبَار وَالنَّظَر فِي الْأَدِلَّة وَذَمّ الْأَمَانِيّ وَالْهَوَاجِس وَالظُّنُون وَهِيَ كَثِيرَة مَشْهُورَة)[4]، كما أن صحابة رسول الله ﷺ ورثوا عنه العلم وخلفوه، فإن التابعين ورثوه عن الصحابة وخلفوهم، وكذا أخلف التابعين بعدهم تابعي التابعين وهكذا لا تزال هذه الأمة فيها أتباع للرسول حتى يوم القيامة، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ

---

1) رواه البخاري ج15 ص 474 رقم 4662

2) رواه البخاري ج11 ص 288 رقم 3210

3) شرح النووي على مسلم ج15 ص 166

4) الْخَاطِر قَدْ يَكُون مِنْ اللَّه وَقَدْ يَكُون مِنْ الشَّيْطَان وَقَدْ يَكُون مِنْ النَّفْس ، وَكُلّ شَيْء اِحْتَمَلَ أَنْ لَا يَكُون حَقًّا لَمْ يُوصَف بِأَنَّهُ حَقّ

فيصل بن سعيد بن محمد الصاعدي: الأحاديث الصحيحة الواردة في شأن الجن والشياطين ج1ص60

حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ)[1]، وفي رواية (وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ)[2]، ولا يزال – كذلك - كتاب هذه الأمة فيه البيان والتبيان لكل شيء لا تنضب معانيه، فيه الهدى والرحمة والبشرى للمسلمين، ليظل المنهج المسطور في الكتب محفوظا بالمنهج العملي الذي ورثه الخلف عن السلف، ويظل المنهج العملي مطابقا للمنهج المنزل من الله لا يفترقان حتى يوم القيامة.

قوله (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (82) أي أن الذين يعرضون عن التسليم لأوامر الله ليس على النبي ﷺ وأصحابه غير ما قدموا من البلاغ، وليس عليهم انتظار تسليمهم لها، فقد تم البلاغ المبين، وليس على الرسول إلا البلاغ المبين.

قوله (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ)(83) فكل ما تقدم من نعم ذكرتها السورة لا ينكرها إلا جاحد، ولذلك أخبر الله عنهم على سبيل التقريع والتوبيخ، قال أبو حيان (وعرفانهم للنعم التي عُدت عليهم حيث يعترفون بها، وأنها منه تعالى، وإنكارهم لها حيث يعبدون غير الله، وجعل ذلك إنكاراً على سبيل المجاز، إذ لم يرتبوا على معرفة نعمه تعالى مقتضاها من عبادته)[3]، قال الزمخشري (معنى

1) رواه البخاري ج22 ص 287 رقم 6768
2) رواه البخاري ج22 ص 287 رقم 6768
3) البحر المحيط ج7 ص 287

www.alukah.net
شبكة الألوكة

"ثم" الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأنّ حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر)[1].

ونكران النعمة له صورة جزئية تختلف عن النكران بالكلية والتي في قوله (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) (22)، فالنكران للنعمة ليس قاصر على هؤلاء الكافرين، بل إن من المقصرين في عبادة الشكر من هم كذلك منكرون ولو بشيء قليل، وذلك حين لا يؤدون تمام الشكر، فعن بن عباس قال (في بن آدم ستون وثلاثمائة سلامى أو عظم أو مفصل على كل واحد في كل يوم صدقة كل كلمة طيبة صدقة وعون الرجل أخاه صدقة والشربة من الماء يسقيها صدقة وإماطة الأذى عن الطريق صدقة)[2]، إذ تفوتهم صدقة واجبة على أحد الأعضاء أو الحواس أو العظام أو المفاصل..الخ.

بهذا المعنى لابد من التقصير في واجب الشكر، إذ يتعذر شكر الله على كل نعمة، ونعم الله لا تعد ولا تحصى، بيد أن رحمة الله واسعة، ولذلك جعل صلاة الضحى تجزئ عن ذلك كله، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنْ الضُّحَى)[3].

---

1) الكشاف ج3 ص 386

2) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 152 رقم 422، صحيح الأدب المفرد ج1ص 175 رقم 325 قال ليث راوي الحديث (أظنه رفعه شك في ذلك)

3) رواه مسلم ج4 ص 47 رقم 1181

قوله (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا..) (84) (شهيدها نبيها عَلَى أنه قد بلغ رسالات ربه)[1]، كذلك الذي يقتل في سبيل الله فهو شهيد على أمته أنه قد ضحى بدمه لأجل الشهادة بكلمة الحق، وأنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة حتى قتل في سبيل الله، ويلحق بهم كذلك كما قال الثعالبي أي: (عُدُوْلَ الأممِ وأخيارَهَا، فيشهدوْنَ على الأمم بخيرِها وشرِّها)[2].

قوله (ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) (84) أي حين يشهد عليهم شهيد الأمة عندئذ لا يجدون أحد يشفع لهم، ولا يجدون فرصة للاستعتاب والتوبة، قال الشنقيطي (لأن الآخرة ليست بدار تكليف، فلا يردون إلى الدنيا ليتوبوا)، وقال "استعتب" تستعمل في اللغة بمعنى طلب العتبى، أي: (الرجوع إلى ما يرضي العاتب ويسره)[3].

قوله (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) (85) دليل على الواقعية وأن أمر العذاب في الآخرة لا شفقة فيه، ولا رأفة، بل هو عذاب حق، لا يخفف مقداره عن صاحبه ولا يؤجل منه شيء، فلا وجه لتأويل آيات العذاب على المجاز، بل هي آيات تصف ما يحل بأهل النار حقا، وذلك كله يزيد من التهويل لأمرها، والتعذيب بها.

---

1) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 108 قاله قتادة

2) تفسير الثعالبي ج3 ص 161

3) أضواء البيان ج2 ص 422 للشنقيطي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وسبب استحقاقهم العذاب واضح في الآية بأنهم ظلموا، يقول النبي ﷺ (إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)[1]، لاسيما إذا كان الظلم في صورة فتنة أهل الإسلام عن دينهم، كما في قوله (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ) فالظالمون هم الذين يكرهون الناس على الكفر، كما كان شأن فرعون وأمثاله.

قوله (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) (86) ففي الحديث (مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ)[2]، والطواغيت كفرعون، قال الله (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (97) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ) (هود/98).

قوله (وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (87) قال ابن كثير أي: (استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع) [3]، كما قال: (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا) [مريم: 38] أي: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) [السجدة: 12].

---

1) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 171 رقم 487 وصححه الألباني: صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص355 رقم 2604

2) رواه البخاري ج20 ص 238 رقم 6088

3) تفسير ابن كثير ج4 ص 594

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال القرطبي أي (استسلموا لعذابه وخضعوا لعزه)[1]، وقد كانوا في الدنيا لا يستسلمون لقضـــائه ولا يرضون بقدره، ولكنهم اليوم يستسلمون ويخضعون لحكمه، ولا مفر.

قوله (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) (88) انظر كيف أن الكفر اقترن عندهم بالصد عن سبيل الله، ولذلك سماهم الله ظالمين في الآية السابقة، ولـــذلك كذلك زادهم عذابا فوق العذاب، وسمى فتنتهم للمؤمنين عند دينهم إفساد، قال الشنقيطي فذلك (يدل على أنهم كانوا يفسدون على غيرهم مع ضلالهم في أنفسهم)[2]، فليس ثمة إفساد أشد من إفساد الـــدين، وفتنة المؤمنين.

قال ابن عاشور والباء في (بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) للسببية. والمراد: إفسادهم الراغبين في الإسلام بتسويل البقاء على الكفر، كما فعلوا مع الأعشى حين جاء مكة راغبا في الإسلام مادحا الرسول ﷺ بقصيدة)[3].

أَلَم تَغتَمِض عَيناكَ لَيلَةَ أَرمَدا... وَعادَكَ ما عادَ السَليمَ المُسَهَّدا[4]

1) تفسير القرطبي ج10 ص 163
2) أضواء البيان ج2 ص 426
3) التحرير والتنوير ج13 ص 200
4) الأغاني لأبي فرج الاصفهاني ج9 ص 147 ديوان الأعشى ج4 ص 1
https://www.aldiwan.net/poem21923.html

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ...) (89) قال أبو حيان (لما ذكر ما شرفه الله به من الشهادة على أمته، ذكر ما أنزل عليه مما فيه بيان كل شيء من أمور الدين، ليزيح بذلك علتهم فيما كلفوا، فلا حجة لهم ولا معذرة)[1].

قال ابن عاشور (فرسول الله ﷺ شهيد على المكذبين ومرشد للمؤمنين، وهذا تخلص للشروع في تعداد النعم على المؤمنين من نعم الإرشاد، وبيان بركات هذا الكتاب المنزل لهم)[2].

فالرسول شهيد على قومه بالتزامه هذا الكتاب وتمسكه به، وكأنه قرآن يمشي على الأرض، فكان قدوة وأسوة حسنة للمسلمين في تطبيق هذا الكتاب والتزام أحكامه، فلا عذر لهم في عدم التمسك به والنبي بشر مثلهم ومن أنفسهم، يحتاج لما يحتاجون إليه من مأكل وملبس ومشرب ومنكح وراحة وسكن..الخ، وهو في كل ذلك مستعصم بكتاب الله يسير على شرعه وهداه ملتمسا منه الرحمة ومستبشرا بالأجر والمثوبة.

قوله (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (89) عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ:"إِنَّ اللهَ أنزل فِي هَذَا الْكِتَاب تبيانًا لكل شيء، ولقد علمنا بعضًا مما بين لنا في القرآن، ثُمَّ تلا: " وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَاب تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ "، قَالَ: بالسنة"[3]، كما في قوله: [ما فرطنا في الكتاب من شيء] (الأنعام 38)، ولذلك قيل ("إن الله لو أغفل شيئًا لأغفل الذّرّة والخردلة والبعوضة"[4]، قال بعض

1) البحر المحيط ج7 ص 290
2) التحرير والتنوير ج13 ص 203
3) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 110 رقم 13491
4) د / محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون ج4 ص 384

العلماء: إن تحت كل حرف من كتاب الله كثيرا من الفهم مذخورا لأهله على مقدار ما قسم لهم من ذلك واستدلوا على ذلك بقوله: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) (الحجر/12)، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن)[1].

و"الهدى" هو الاهتداء للصراط المستقيم صراط الله، و"الرحمة" هي التوفيق للسير فيه حتى الوصول إلى ما يرضي الله، و"البشرى" هي نهاية الطريق أي حصول رضوان الله ودخول جنته.

1) للدكتور محمد زكي محمد خضر هذا القرآن في مائة حديث نبوي ج1 ص 6

المبحث السابع

استظهار مبادئ الإسلام لتأكيد العهد مع المؤمنين وإقامة الحجة على الناكثين

قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97) فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) }

قوله (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (90) هذه الآية أجمع آية في القرآن من حيث التكاليف الشرعية، فعن عبد الله يقول (إن أجمع آية في القرآن لخير وشر آية في سورة النحل (إن الله يأمر بالعدل والإحسان..الآية)[1].

والأمر بالعدل أمر بالصفة الجامعة لكل حسن في المعاملة مع الناس، قال رسول الله ﷺ (إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)[2]، فتلك الموعظة من الله، وعليها تدور أوامره، فبها تقوم الأمم وبضدها تنهار وتسقط.

ووجود هذه الآية في سورة مكية بمثابة تمهيد للمرحلة المقبلة، وهي التشريعات المدنية، حيث تدل على مقاصد الشريعة الإسلامية، وأن أوامر الله تدور في فلك الأمر بالعدل والإحسان، ومن صور الإحساء إيتاء ذي القربى، فمن لم يحسن لأقربائه هل ينتظر منه أن يحسن لغيرهم، يقول ابن خلدون (إن الملك لا يتم عزه إلا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولاقوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ولاقوام للرجال إلا بالمال ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعل له قيما)[3].

---

1) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج9 ص 132 رقم 8677 والحاكم في المستدرك ج2ص388 رقم3358، البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 171 رقم 489 وصححه الألباني: صحيح الأدب المفرد ج1 ص 195

2) رواه البخاري ج11 ص 294 رقم 3216

3) تاريخ ابن خلدون ج1 ص 287

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبالمقابل فإن أسباب انهيار الأمم انتشار الفاحشة فيها، فنواهيه فإنما هي موانع من هلاك الناس وانهيار ممالكهم لاسيما الفحشاء والمنكر، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ)[1].

والمنكر هو ما أنكره أصحاب الفطر السليمة والعقول الراشدة، كما في الحديث (أتحبه لأمك قال: لا قال: وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم قال: أتحبه لابنتك ؟ قال: لا قال: وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم قال: أتحبه لأختك ؟ قال: لا قال: وكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم)[2].

أما البغي فهو غصب الحقوق من أصحابها، والعدوان عليهم، (وأَصلُ البَغْي مجاوزة الحدّ)، مثل أن يظلم الشريك شريكه فيأخذ من نصيبه، وفي التنزيل (وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ)،

1) رواه ابن ماجة ج12 ص 25 رقم 4009 وصححه الألباني: صحيح ابن ماجة ج2 ص 370 رقم 3246
2) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج8 ص 183 رقم 7775

ومنه قوله (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (يونس/23)، قال ابن منظور (البَغْي الإستطالة على الناس وقال الأَزهري معناه الكبر والبَغْي الظُّلْم والفساد) [1]، وهو نتيجة مترتبة على الفحشاء والمنكر، فمن يفعل الفحشاء ويخالف أعراف الناس ولا يستحي فإنه بعد ذلك يجرؤ على الاستطالة على النـــاس وظلمهم.

قوله (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) (91) ففي الحـــديث المتقـــدم ذكره يقول النبي ﷺ (وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَـــذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ)، فالوفاء بالعدل يأتي في مقدمة مبادئ السياسة الشرعية التي تحفظ للدولة المســـلمة تحالفاتها مع دول الجوار وغيرها، فتضع الدولة المسلمة في إطار دولي متميز بين الدول، فإذا مـــا أوفـــت بتعاهداتها واتفاقياتها كانت أهلا للثقة بوفائها بعهود أخرى في المستقبل، ومحلا لأن تتفق معها دول أخرى لتوسيع تجاراتها وتحقيق تبادل دبلوماسي وسياسي مع دول أخرى وتعاون مشترك في إطـــارات عـــدة في مجالات الاقتصاد والثقافة والتعليم...وغيرها.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَـــدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ)[2].

1) لسان العرب ج14 ص 75

2) رواه البخاري ج1 ص 59 رقم 33

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومناسبة الآية على وجه الخصوص اقتراب تنفيذ الأنصار ما وعدوا به النبي ﷺ في بيعة العقبة الأولى والثانية وقرب هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، حيث عليهم تنفيذ ما وعدوا به نبيهم من نصرته هو وأصحابه، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ حَالَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ فِي دَارِهِ الَّتِي بِالْمَدِينَةِ)[1]، والذي يؤكد أن هذه الآية تدور في فلك السياسة الشرعية قوله تعالى (أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ)، فعَنْ مزيدة بن جابر فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: " وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ "، قَالَ: نَزَلَتْ هذه الآية في بيعة النَّبِيِّ ﷺ، كَانَ مِنَ اسلم بايع عَلَى الإسلام، فقال: " وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الإِيمَان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا "، فلا تحملنكم قلة مُحَمَّد وأصحابه، وكثرة المشركين إِنَّ تنقضوا البيعة التي بايعتم عَلَى الإسلام"[2].

أما بالنسبة للتحالفات العسكرية التي يعقدها المسلمون مع دول الجوار –بعدما تكون لهم دولة – فإن الإسلام لا يقرها إلا إذا كانت تتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية، بل وينظر إليها نظرة شك وريبة واحتراز، فعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً)[3]، أي (لا عقد ولا عهد على خلاف أمر الإسلام وكانوا يتحالفون ويتعاقدون في الجاهلية على مغالبة بعضهم بعضا وفي كل ما يعن لهم فهدم الإسلام ذلك وإنما المحالفة والمعاقدة في الإسلام على إمضاء أمر الله واتباع أحكام الدين والاجتماع على نصر من دعا إليها)[4].

1) رواه مسلم ج12 ص 349 رقم 4594
2) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 114
3) رواه مسلم ج12 ص 250 رقم 4595
4) محمد بن أبي نصر الأزدي: تفسير غريب ما في الصحيحين ج1 ص 109

قوله (وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) (91) هذا إذا كان العهد بين المسلمين وبعضهم البعض كما تقدم، وذلك كما في قوله (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) (الفتح/10).

أما إذا كان العهد بين المسلمين وغيرهم من غير المسلمين، فإنهم ولأنهم غير مؤمنين بالله، فإن ذمة الله ليس محلا لكفالة اتفاقهم مع المسلمين، وإنما ينحصر اتفاقهم مع المسلمين في ذمة المسلمين، فيوفون عهودهم معهم ما لم يخالف عهدهم شرع الله، فعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ... فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا) [1].

ومن صور نقض العهود مع المشركين إذا ما خالفت شرع الله ما ورد في سورة الممتحنة من عدم جواز إرجاع المسلمات المؤمنات من المهاجرات إلى الكفار متى تجاوزن امتحانهن، وذلك خلافا لعموم الاتفاق مع مشركي قريش في صلح الحديبية، لقوله سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ

1) رواه مسلم ج9 ص 150 رقم 3261

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا)(الممتحنة/10).

قوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا)(92) عن قتادة في هذه الآية قال (فلو سمعتم بامرأة نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم: ما أحمق هذه! وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده) [1]، وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد (هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا)[2].

فهذه استعارة حيث شبه الذين عاهدوا الله ورسوله وأكدوا أيمانهم بمن حبكت الغزل وأحكمت غزلها حتى إذا ما اكتمل واشتدت قوته قامت فنقضته، قال الخازن والمعنى: (أن هذه المرأة، لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض، فكذلك من نقض العهد لا تركه ولا حين عاهد وفى به)[3].

قوله (تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ)(92) أي (إفساداً وخديعة كأن تحالفوا جماعة وتعاهدوها، ثم تنقضون عهدكم وتحلون ما أبرتم من عهد وميثاق وتعاهدون جماعة اخرى

1) تفسير الطبري ج17 ص 284
2) تفسير ابن كثير ج4 ص 599
3) تفسير الخازن ج4 ص 206

لأنها أقوى وتنتفعون بها أكثر أي جماعة اكثر من جماعة رجالًا وسلاحًا أو مالًا ومنافع)[1]، قال مجاهد (أن تكون أمة هي أربى من أمة قال يعني أكثر وأعز قال كانوا يتحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ويحالون هؤلاء الذين أعز فنهوا عن ذلك)[2].

قوله (إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)(92) أي يبتليكم الله بمصالح تلوح لكم من نقض ميثاقكم الذين أخذتموه على أنفسكم نظير عقد ميثاق جديد مع أمة أخرى، فيختبركم هل تستجيبون لإغراءات هذه الأمة الجديدة حتى تنقضوا ميثاقكم الأول أم تتمسكون به ولا تلتفتون لهم.

ولعل ذلك –والله أعلم– مقصود به الذي أسلموا في مكة وعاهدوا النبي ﷺ على الهجرة ونصرته، فلما أذن لهم بالهجرة لم يهاجروا وظلوا مع المشركين في مكة يتحمون بحماهم، فلما جاء يوم بدر قتلوا، فأنزل الله فيهم (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (97).

1) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 320
2) تفسير مجاهد ج1 ص 351

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(93) أي لو شاء الله لما ابتلا هؤلاء المستضعفين بالاستقواء بالكافرين، ولجعلكم أمة واحدة على الإيمان والهدى، ولكن مشيئته اقتضت أن يحصل التدافع بين الناس ليميز الله الخبيث من الطيب، وشاءت مشيئته أن يجعل الصحابة في أعين الناس قلة فيستخف المنافقون أو ضعاف الإيمان بعهودهم معهم، بل والكفار والمشركون، فيحصل الابتلاء لهم.

قوله (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ) أعاد عليهم النهي، مؤكدا أن إخلالهم بالعهد ونكوثهم عن الوفاء به بمثابة خداع وخيانة معد لها مسبقا، فأصحاب العهود لا يخونون، ولأنهم ليسوا أهلا للوفاء فقد وقعت الخيانة منهم، وإنما كانت مبايعة من أسلم منهم للنبي أول من أسلم من باب تصيد الفرص مستقبلا، فإن كانت الكفة للنبي لحق به، وإن كانت لقريش فهم معهم، وليس ذلك من الإيمان في شيء.

قوله (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا..) (94) قال ابن جزي (استعارة في الرجوع عن الخير إلى الشر، وإنما أفرد القدم ونكّرها: لاستعظام الزلل في قدم واحدة فكيف في أقدام كثيرة) [1]، قال ابن عاشور (مع أن الزلل لا يتصور إلا بعد الثبوت لتصوير اختلاف الحالين وأنه انحطاط مع حال سعادة إلى حال شقاء)[2]، (وقد عصم الله المسلمين من الارتداد مدة مقام النبي ﷺ بمكة، وما ارتد أحد إلا بعد الهجرة حين ظهر النفاق فكانت فلتة عبد الله بن سعد بن أبي سرح واحدة في المهاجرين وقد تاب وقبل توبته النبي ﷺ)، كما روي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْإِسْلَامِ فَأَصَابَهُ

1) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 861
2) التحرير والتنوير ج1 ص 2392

وَعْكٌ –لم يقدر على العيش مثل النبي وأصحابه في جهاد وصبر- فَقَالَ أَقِلْنِي بَيْعَتِي فَأَبَى ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ أَقِلْنِي بَيْعَتِي فَأَبَى فَخَرَجَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طِيبُهَا)[1].

قوله (.. وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (94) أشار إلى صدهم عن سبيل الله لأنهم بنقض عهودهم مع المسلمين ينصرف الناس مثلهم إلى الكفار فينقضون عهدهم مع المسلمين مثلما نقضوا، قال الواحدي (وذلك أنَّهم إذا نقضوا العهد لم يدخل غيرهم في الإسلام، فيصير كأنهم صدُّوا عن سبيل الله وعن دين الله)[2]، من هذا نفهم حرص الإسلام على توحيد صف المسلمين لاسيما في مرحلة الاستضعاف، وأنه يقوي الضعيف فلا يتركه لضعفه ولا لوساوس الشيطان أو ضعف نفسه.

قوله (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (95) ذلك أن الذين نكثوا عهودهم مع المسلمين كان ذلك مقابل أن يشعروا بالآمان في أوطانهم، فبينت لهم الآية أن ذلك ثمن قليل، ولو أنهم اختاروا ما عند الله لكان خيرا لهم، ولكنهم لا يعلمون ذلك بيقين راسخ في صدورهم.

---

1) رواه البخاري ج22 ص 151 رقم 6669

2) الوجير للواحدي ج1 ص 432

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والمعنى الوارد بالآية أعمق من أن يراد به الانحياز إلى عهد أمة أكثر من أمة أو التحالف مع جيش أكبر من جيش، والتعاون مع دولة هي أغنى من دولة، فإنه ينبسط – كذلك – إلى الأمر بحفظ العهود حتى يحين أجلها، ودون تحين أصحاب العهد انقضاء عهدهم وتربصهم لحلول الأجل حتى ينقضوا على عدوه على حين غرة، بل عليهم أن يراعوا في ذلك عهد الله وآداب انقضاء العهد، فعَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَرَ قَالَ كَانَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَبَيْنَ الرُّومِ عَهْدٌ وَكَانَ يَسِيرُ نَحْوَ بِلَادِهِمْ حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعَهْدُ غَزَاهُمْ فَجَاءَ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ أَوْ بِرْذَوْنٍ وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ وَفَاءٌ لَا غَدَرَ فَنَظَرُوا فَإِذَا عَمْرُو بْنُ عَبَسَةَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَشُدُّ عُقْدَةً وَلَا يَحُلُّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ أَمَدُهَا أَوْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ فَرَجَعَ مُعَاوِيَةُ)[1]، أي أنه لم يجز له المشي إلى القوم المعاهدين طالما لم ينقض العهد معهم، فإذا انقضى العهد باغتهم بالغزو، فلربما أرسلوا إليه رسولا لتجديد عهدهم أو إثبات وفاءهم فيفوت عليهم ذلك.

قوله (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (96) قال رسول الله ﷺ (من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى)[2]، أي أنه في هذه المرحلة من مراحل الدعوة، وقد تنازع المسلمون كثير من القوى، وتضاربت كثير من المصالح، وقد يضطر الفقيه أن يتنازل عن شيء مقابل أن يتمسك بالذي هو خير، فعندئذ يحتاج المسلم أن يوازن بين المصالح، ويرجح بينها.

1) رواه أبي داود ج7 ص 400 رقم 2378 وصححه الألباني: صحيح وضعيف سنن أبي داود ج6 ص 259
2) رواه ابن حبان ج2 ص 486 رقم 709

وهو حين يفعل ذلك لا ينسى عهده مع الله ورسوله بنصرة الدين، وأن هذا الطريق الذي اختـــاره مليئ بالأشواك، قال تعالى (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّـــذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (العنكبوت/3)، وقال سبحانه (أَمْ حَسِـــبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) (البقرة/214).

قوله (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (97) المعني بالخطاب هنا الذكر والأنثى، وذلك لأن الهجرة واجبة على كلاهما، بخلاف الجهاد في سبيل الله، فإنه فرض على الرجال وتنتدب له النساء، أما "الهجرة" فقد هاجر كثير من النســـاء مع الرجال، فهؤلاء جميعا تجاوزوا هذا الاختبار وهاجروا بعد أن خاطروا بحياتهم وأولادهم وأمـــوالهم في سبيل الله، فإذا كان أمر الهجرة شاق على الرجال فإنها أشد على النساء.

روي ابن اسحق عن أم سلمة أن زوجها أبو سلمة هم بالهجرة، وجعل مع أم سلمة ابنها في حجرها وأخذ البعير يقوده، فرآه رجال بني المغيرة ومنعوه من الهجرة بزوجته وابنه، فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الاسد، وحبس بنو المغيرة أم سلمة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة مع رسول الله ﷺ، قال أم سلمة (فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الابطح فما أزال أبكي حتى أمسي – سنة أو قريبا منها – حتى مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني، فقـــال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟ قالت فقالوا لي: الحقـــي

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بزوجك إن شئت)[1]، قالت فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية ؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد ؟ قلت: ما معي أحد إلا الله وبني هذا، فقال: والله مالك من متركِ، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه....فقادني حتى أقدمني المدينة فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية – وكان أبو سلمة بها نازلا – فادخليها على بركة الله)[2].

وقد وعد الله من آمن وعمل صالحا وجاهد في سبيل الله بأن يحييه في الدنيا حياة طيبة، يسعد فيها، ويشعر فيها بالرضي ولا يشعر بالسخط، قال البيضاوي (يعيش عيشًا طيبًا، فإنه، إن كان موسرًا فظاهر، وإن كان معسرًا يطيبُ عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الأجر العظيم، بخلاف الكافر فإنه إن كان معسرًا فظاهر، وإن كان موسرًا لم يدعه الحرص وخوف الفوات أن يهنأ بعيشه)[3]، قال ابن عجيبة (الحياة الطيبة في الدنيا إنما تتحقق بكمالها عند أهل التجريد بالقناعة والكفاية مع التوفيق والهداية حيث انقطعت عنهم الشواغل في الظاهر، والعلائق في الباطن، فاطمأنت قلوبهم بالله، وسكنت أرواحهم في حضرة الله)[4].

---

1) البداية والنهاية ج3 ص 208

2) البداية والنهاية ج3 ص 208

أسلم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري هذا بعد الحديبية، وهاجر هو وخالد بن الوليد معا

3) تفسير البيضاوي ج3 ص 378

4) البحر المديد ج3 ص 296

المبحث الثامن
تثبيت الفئة المستكره على الكفر وحضها على الجهاد والهجرة

قال تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (109) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111)}

تكاد النفس البشرية أن تثبط المسلم عن الهجرة في سبيل الله، بل قد يتخاذل عن نصرة رسوله وأصحابه، فيتقاعس عن ذلك، رغم أنه قد عاهد الله ورسوله، وجعل الله كفيلا على إنفاذ وعده، إلا أنه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقت الهجرة وشأنها عزيز على النفس، حيث تنتاب المرء كثير من التراعات، يقول النبي ﷺ (إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ)[1].

فتشير الآيات إلى هذا المعنى وأن النفس البشرية تتداخلها كثير من الوساوس الشيطانية لتصرف المسلم عن إنفاذ وعده، فيترك الهجرة أو يستسلم للإكراه فيرتد عن الإسلام أو يترك الجهاد في سبيل الله، فهؤلاء الذين ظلوا في مكة و لم يهاجروا بعضهم أكره على الكفر ظاهرا، وبعضهم عجز عن الهجرة وكان ينوي الهجرة.

وقبل الخوض في شرح مسألة الإكراه على الكفر أشار الآيات إلى حال الكفار الذين يكرهون المؤمنين على ذلك، فبينت أن شاغلهم هو الطعن في دين الله تعالى، وافتراء الكذب علي آياته، فهؤلاء وإن كانوا يظهرون أمام الناس بمظهر الناقد المثقف فإنهم يحاولون –في حقيقة أمرهم – طعن المؤمنين بخناجرهم ليردوهم عن دينهم إن استطاعوا ذلك، فيخترعون مصطلحات من عندهم يبدلوا دين الله كـ العلمانية،

1) رواه النسائي ج10 ص 193 رقم 3083 وصححه الألباني: صحيح النسائي 203/7 / السلسلة الصحيحة المجلدات478/6 رقم2979

التنوير، التجديد....الخ، وهذه المصطلحات التي يخترعونها لا يتلزمون هم أنفسهم بها، إذ لو جرت اللعبة على ما أرادوا، وفوجئوا بأنها سارت لصالح المسلمين فإنهم يكونون أول المنقلبين عليهم، وعندئذ يظهر الجانب الخفي منهم باضطهاد المسلمين وإيذائهم بدنيا ومعنويا ونفسيا حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

وهؤلاء يهددهم الله بأن عليهم غضبهم، ويبين سبب جنوحهم عن الحق كل هذا الجنوح، حيث تمكنت الدنيا من قلوبهم فأضحى أمر الآخرة هينا عليهم، فطبع على قلوبهم حب الدنيا وكراهية لقاء الله، وأضحت الغفلة عن الآخرة ديدنهم.

كما التفتت الآيات إلى الذين فتنوا في دينهم، وقد أكرهوا على الكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، فحضتهم على الجهاد والصبر ثم الهجرة فرارا بدينهم، وبشرتهم بمغفرة من الله ورضوان، حيث يوفون أجورهم يوم القيامة، وكذلك الذين ظلموهم فإنهم يوفون جزاء أعمالهم ولا يظلمون.

قوله (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) (98) ذلك أن المسلم يتزود بقراءة القرآن، ويجمع أمره بتلاوته، فإذا ما تردد في شيء فإن عليه أن يرجع لكتاب الله الذي هو تبيانا لكل شيء، فيقرر وفق مراد الشرع ما يهم بفعله، وعندئذ يأتيه الشيطان ليصرفه عن نيته التي أخلصها لله، الذي له الدين واصبا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فالله سبحانه يريد أن يقبل العبد عليه وهو يتلوا كتابه صافيا من المكدرات، منصرفا عما يشغله من الدنيا، فلا يتعجل في القراءة، ولذلك شرع من جملة آداب القراءة الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حتى لا يشغله عنها بشيء، ومنه قوله ﷺ لمن غضب وتملك الغضب منه (إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ)[1]، قال ابن تيمية (فَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ عِنْدَ طَلَبِ الْعَبْدِ الْخَيْرَ لِئَلَّا يَعُوقَهُ الشَّيْطَانُ عَنْهُ ؛ وَعِنْدَ مَا يَعْرِضُ عَلَيْهِ مِنْ الشَّرِّ لِيَدْفَعَهُ عَنْهُ عِنْدَ إرَادَةِ الْعَبْدِ لِلْحَسَنَاتِ ؛ وَعِنْدَ مَا يَأْمُرُهُ الشَّيْطَانُ بِالسَّيِّئَاتِ)[2].

قال ابن عاشور (وإنما شرعت الاستعاذة عند ابتداء القراءة إيذانا بنفاسة القرآن ونزاهته، إذ هو نازل من العالم القدسي الملكي، فجعل افتتاح قراءته بالتجرد عن النقائص النفسانية التي هي من عمل الشيطان، ولا استطاعة للعبد أن يدفع تلك النقائض عن نفسه إلا بأن يسأل الله أن يبعد الشيطان عنه بأن يعوذ بالله، لأن جانب الله قدسي لا تسلك الشياطين إلى من يأوي إليه، فأرشد الله رسوله إلى سؤال ذلك وضمن له أن يعيذه منه، وأن يعيذ أمته عوذا مناسبا) [3]

---

1) رواه البخاري ج 11 ص 60 رقم 3040

2) مجموع الفتاوى ج7 ص 284

3) التحرير والتنوير ج13 ص 223

وقال كما شرعت التسمية في الأمور ذوات البال وكما شرعت الطهارة للصلاة، وإنما لم تشرع لذلك – عند القراءة- كلمة "باسم الله" لأن المقام مقام تخل عن النقائض لا مقام استجلاب التيمن والبركة، لأن القرآن نفسه يمن وبركة وكمال تام، فالتيمن حاصل، وإنما يخشى الشيطان أن يغشى بركاته فيدخل فيها ما ينقصها، فإن قراءة القرآن عبارة مشتملة على النطق بألفاظه والتفهم لمعانيه وكلاهما معرض لوسوسة الشيطان وسوسة تتعلق بألفاظه مثل الإنساء،لأن الإنساء يضيع على القارئ ما يحتوي عليه المقدار المنسي من إرشاد، ووسوسة تتعلق بمعانيه مثل أن يخطئ فهما أو يقلب عليه مرادا وذلك أشد من وسوسة الإنساء، وهذا المعنى يلائم محمل الأمر بالاستعاذة عند الشروع في القراءة.

قوله (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (99) لأنهم دخلوا حومة الله المباركة، فأبعدهم عن عدوه، فمن دخل حمى الله كان في حرز من الشيطان الرجيم، يقول النبي ﷺ (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)[1]، ويقول النبي ﷺ (مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ)[2].

من هذا نفهم أن مدخل الشيطان للإنسان يأتي من قلة التوكل على الله سبحانه، ولذلك يوهم الشيطان الإنسان بالعديد من المخاوف حتى ينسى التوكل على الله، كما في قوله (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ) (البقرة/268).

قوله (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (100) قال ابن القيم (فإن قيل فقد أثبت له على أوليائه – هاهنا – سلطانا، فكيف نفاه بقوله تعالى حاكيا عنه مقررا له (وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) وقال تعالى (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) قيل السلطان الذى أثبته له عليهم غير الذى نفاه من وجهين أحدهما أن السلطان الثابت هو سلطان "التمكن" منهم وتلاعبه بهم وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذى نفاه سلطان الحجة فلم يكن لإبليس عليهم

1) رواه مسلم ج1 ص 140 رقم 51

2) رواه البخاري ج11 ص 70 رقم 3050

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من حجة يتسلط بها غير أنه دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان، الثاني أن الله لم يجعل له عليهم سلطانا – ابتداء– البتة ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته ودخولهم في جملة جنده وحزبه فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم، والمقصود أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه)[1].

وفي قوله (وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) قال ابن تيمية (فبين أن سلطان الشيطان وإغواءه إنما هو لغير الملخصين[2]، قال تعالي في قصة يوسف عليه السلام (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين).

وقال (فإذا كان الشيطان ليس له سلطان إلا علي من أشرك به، فكل من أطاع الشيطان في معصية الله فقد تسلط الشيطان عليه وصار فيه من الشرك بالشيطان بقدر ذلك)[3]، والشيطان يوالي الإنسان بحسب عدم إيمانه كما قال تعالي (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون)، وقال تعالي (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين).

---

1) عدة الصابرين صـ71، التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 20

2) أمراض القلب وشرفاؤه ج1 ص 60

3) قاعدة في المحبة ج1 ص 106

قوله (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (101) هذه الآية توطئة لقرب نزول التشريع المدني، فهي من سعة الشمول في المعنى ما يطول كل صور النسخ، سواء ما ذكره القرطبي (تبديل شريعة متقدمة بشريعة مستأنفة)[1]، عدا أحكام الاعتقاد فإنها لا يطولها النسخ، فالذي يجري عليه النسخ فهي تلك الأحكام العملية سواء تلك التي في شريعة موسى وعيسى أو تلك الأحكام التي يجري عليها النسخ في شريعة محمد ﷺ مثلما جرى النسخ في حكم كف اليد عن إيذاء المشركين، ولذلك نزل قوله تعالى في آخر سورة النحل (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ)(126)، قال ابن عاشور (فالمراد من التبديل في قوله تعالى؛ (بَدَّلْنَا) مطلق التغاير بين الأغراض والمقامات أو التغاير في المعاني واختلافها باختلاف المقاصد والمقامات مع وضوح الجمع بين محاملها)[2].

يعني ذلك تغير الأحكام بتغير الظروف والمآلات، ذلك أن الصحابة تربوا في العهد المكي على مسامحة الذين كفروا باعتبار أن في القصاص منهم إيقاد نار للفتنة في المجتمع، ودرأ المفسدة مقدم على جلب المصلحة، والضرر الأكبر يزال بالضرر الأقل، كما في قوله (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الجاثية/14)، وذلك في مرحلة كف اليد، فلما نزل الأمر بقتال الظالمين هنا أثار الأمر تشكيك المشككين في الدين، قال تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) (النساء/77)، فأبان الله شيء من التفصيل أن شرعه كله لحكمة، وأنه سبحانه

1) تفسير القرطبي ج10 ص 176

2) التحرير والتنوير ج13 ص 226

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يبدل الأحكام بحسب المكان والزمان والأشخاص والظروف، فأراد الله تعالى أن يبين أنه لا يخفى عليه شيء من تبديل الآيات والأحكام.

وقد استغل المشركون مثل هذه الأحداث للطعن في الدين، ليقولوا أن النبي يفتري علي الله الكذب، وأن ما يقوله من عند نفسه [1]، فهو يبطل اليوم ما أثبته البارحة، وغدا سوف يبطل ما أثبته اليوم، قال ابن عاشور (تعمدهم التمويه فيما يأتي من آيات القرآن مخالفا لآيات أخرى لاختلاف المقتضي والمقام،والأغراض والأحوال التي يتعلق بها، فيتخذون من ظاهر ذلك دون وضعه مواضعه وحمله محامله مغامز يتشدقون بها في نواديهم، يجعلون ذلك اضطرابا)، ومنهم من يعلمون ولكنهم يكابرون.

قوله (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ)(102) فالوحي الذي هو كلام الله المترل على عبده محمد ﷺ من خلال الأمين جبريل عليه السلام الملقب بروح القدس غايته تثبيت الذين آمنوا على الحق وإرشادهم إلى شريعة الله التي فيها الهدى، وبشرى للمسلمين جزاء ما صبروا على السراء والضراء.

1) روي عن ابن عباس أنه قال: "كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نزلت آية ألين منها يقول كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه، وأنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه"
تفسير النيسابوري ج5 ص 65، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج4 ص 307 وعند الرازي وابن عاشور، و لم أجل له أصل.

فقوله (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آَمَنُوا)، أي: (ليبلوهم بالنسخ –سواء الشرائع السابقة أو الأحكام المرحلية في القرآن –، حتَّى إذا قالوا فيه: هو الحقُّ من ربِّنا، حكم لهم بثبات القدم في الدِّين، وصحَّة اليقين بأن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب)[1].

قوله (وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) فالهدى يتحقق بالتزام الأحكام التي أمر الله بها والتي نسخت الأحكام السابقة، كالتهيؤ للهجرة والجهاد بعدما ألفوا العفو والمسامحة، وبشرى للمسلمين الذي يتهيئون للهجرة بأن أرض الله واسعة، وأنهم سوف يأمنون على دينهم في المدينة بعدما اضطهدوا في مكة.

قوله (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) قوله (لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (103) أخبر الله تعالى بأنه يعلم ما يقولون، بمعنى يعلم تأثير الشبهة التي ألقاها المشركون على النبي محمد ﷺ.

وهكذا يعلمنا القرآن منهج الدعوة في سبيل الله، فهي ليست فحسب تأصيل مقامات، وتنظير مسلمات، وتأكيد بديهيات، وتثبيت حقائق وأدلة، بل هي كذلك في شق منها تتضمن رد شبهات، ودحض أقاويل باطلة وحجج مزيفة، ولهذا نجد الجهد الدعوي منصرف في شق منه للرد على هذه الافتراءات، وهذه الشبهة ولكي يدحضها القرآن حدا بالناس إلى التأمل في اللغة التي نزل بها القرآن وكم أنها لغة فصيحة بلسان عربي مبين، غاية في البلاغة، فتضمنت غزارة المعنى مع قلة الألفاظ، وقوتها

1) اللباب في علوم الكتاب ج10 ص 195

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وجزالتها، فكيف ينسب اللفظ للنبي، والمعنى الذي يدل عليه اللفظ معجز، واللفظ الذي يدل على المعنى بليغ، فأضحى اللفظ دال على المعنى، والمعنى لا يتحمله غير اللفظ الذي دل عليه.

قال ابن تيمية (كان بعض المشركين يزعم أن النبي ﷺ تعلمه من بعض الأعاجم الذين بمكة إما عبد بن الحضرمي وإما غيره كما ذكر ذلك المفسرون فقال تعالى (لسان الذي يلحدون إليه) أي يضيفون إليه التعليم لسان (أعجمي وهذا لسان عربي مبين)، فكيف يتصور من يعلمه أعجمي وهذا الكلام عربي، وقد أخبر أنه نزله روح القدس من ربك بالحق فهذا بيان أن هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو –النبي– المحدث لحروفه ونظمه، إذ يمكن لو كان كذلك أن يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألف هو حروفه، فالقرآن جميعه منزل من الرب سبحانه وتعالى لم يتزل معناه دون حروفه) [1].

أي وليس اللفظ وحسب هو إعجاز القرآن، بل إن الحروف التي يتألف منها اللفظ وطريقة النطق بها وصفاتها لتدل على المعنى كذلك، كما هو بين في علم التجويد الذي هو أساس لتلاوة القرآن تلاوة صحيحة، بذلك تصف التلاوة المعنى وصفا دقيقا لا يمكن للعقل إلا أن يتصوره، فيفهم مراد الله بمجرد الإيقاع الصوتي للفظ، فسبحان الله الذي أنزل الكتاب.

قوله (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (104) أشارت الآية إلى أن الذين لا يؤمنون لا يهتدون إلى جزالة ألفاظ القرآن وغزارة معانيه، كما في قوله (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (25).

---

1) دقائق التفسير ج2 ص 181

قوله (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) (105) (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ) حصر القرآن صفات الذين يفترون على الله الكذب، ويلقون الشبهات في الدين، فوصفهم بعدم الإيمان بالله حتى وإن شهدوا بالله، فهم كاذبون، روي أن قوله سبحانه وأولائك هم الكاذبون (يراد به "مقيس بن ضبابة" وأشباههم ممن كان يؤذي آمن ثم ارتد باختياره من غير إكراه)[1].

وهكذا يدل القرآن على أن من يطعن في دين الله هم –في الأساس– ممن ينستبون لهذا الدين، فبين أنهم أُجراء عند الذين كفروا يحضونهم على الطعن في الدين ويظهرون أمام الناس بمظهر المسلمين، قال ابن إسحاق: (وقد كان رسول الله ﷺ عهد إلى أمرائه – في مكة– ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، غير أنه أهدر دم نفر سماهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة وهم: عبدالله بن سعد بن أبي سرح، كان قد أسلم وكتب الوحى ثم ارتد، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة وقد أهدر دمه فر إلى عثمان وكان أخاه من الرضاعة، فلما جاء به ليستأمن له صمت عنه رسول الله ﷺ طويلا ثم قال: " نعم "[2].

قوله (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ) تأكيد على حصر هذه الفئة في المرتدين من الذي لم يدخل الإيمان قلوبهم، وإنما كان ذلك بمثابة حيلة منهم للطعن في الدين، ولكنهم لم يتحملوا الإيمان فخرجوا منه قبل أن يستكملوا مكرهم، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ فَكَانَ

1) تفسير الثعالبي ج2 ص 323

2) السيرة النبوية لابن كثير ج3 ص 563

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَعَادَ نَصْرَانِيًّا فَكَانَ يَقُولُ مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ فَدَفَنُوهُ فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَقَالُوا هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَقَالُوا هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ فَأَلْقَوْهُ فَحَفَرُوا لَهُ وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الْأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ النَّاسِ فَأَلْقَوْهُ)[1]، وهكذا استبان أن أي محاولة للطعن في هذا الدين قد كشفها الله تعالى وأظهر خبث أهلها، فتبرأ القرآن الكريم من أي تحريف أو تزييف أو إضافة أو تعديل، ليضحى كلام الله مترهً عن اللغط أو الطعن فيه.

قوله (مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) بعد أن كشفت الآيات ردة الخبثاء الذي يفترون على الله الكذب، برأت من كفر بالله مكرها، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، (مِنَ أكره فتكلم بلسانه وخالفه قلبه بالإيمان لينجو بِذَلِكَ مِنْ عدوه، فلا حرج عليه، لأن الله سبحانه إنما يؤاخذ العباد بما عقدت عليه قلوبهم"[2]

وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ:"نَزَلَتْ هذه الأية في أناس مِنَ أَهْلِ مكة آمنوا، فكتب إِلَيْهِمْ بعض الصحابة بالمدينة أنْ هاجروا فإنا لا نرى أنكم منا حتى تهاجروا إلينا، فخرجوا يريدون المدينة، فأدركتهم قريش في الطريق ففتنوهم، فكفروا مكرهين، ففيهم نَزَلَتْ هذه الآية"[3]

---

1) رواه البخاري ج11 ص 449 رقم 3348

2) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 123 وكذا ابن كثير في تفسيره ج4 ص 605 قال (وقد روى العَوفِيّ عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمَّار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فوافقهم على ذلك مُكرَها (7) وجاء معتذرًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية، وهكذا قال الشعبي، وأبو مالك وقتادة)

3) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 123

وعن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ثم تركوه فلما أتى رسول الله ﷺ قال: ما وراءك قال: شر يا رسول الله ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير قال: كيف تجد قلبك ؟ قال: مطمئن بالإيمان قال: إن عادوا فعد)[1]، ورُوِيَ أن قريشًا أكرهوا عمّارًا وأبويه – وهما ياسر وسمية – على الارتداد، فربطوا سمية بين بعيرين، وطعنوها بحربة في قلبها، وقالوا: إنك أسلمت من أجل الرجال، فماتت – رحمة الله عليها – وقتلوا ياسرًا زوجها، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا؛ مُكرهًا، فقيل: يا رسول الله؛ إن عمارًا كفر، فقال: « كَلا، إن عَمَّارًا مُلِئ إيمَانًا من قَرْنِه إلى قَدَمِه، واخْتَلَطَ الإِيمَانُ بلَحْمِه ودَمِه » فَأَتَى عمَّار رسولَ الله ﷺ وَهُوَ يَبْكي، فَجَعَلَ رَسُول اللهِ ﷺ يَمْسَحُ عَيْنَيْه، ويقول: « مَا لك، إِنْ عَادُوا لَك فَعُدْ لَهُمْ بِما قُلْتَ »[2]

قال البخاري (فَعَذَرَ اللَّهُ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ لَا يَمْتَنِعُونَ مِنْ تَرْكِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَالْمُكْرَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مُسْتَضْعَفًا غَيْرَ مُمْتَنِعٍ مِنْ فِعْلِ مَا أُمِرَ بِهِ، وَقَالَ الْحَسَنُ التَّقِيَّةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَنْ يُكْرِهُ اللُّصُوصُ فَيُطَلِّقُ لَيْسَ بِشَيْءٍ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ عُمَرَ وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَسَنُ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ (الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ)[3].

1) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 389 رقم 3362، الكامل في التاريخ لابن الأثير ج1 ص 261، أسد الغابة ج2ص309 وعزاه لابن اسحق

2) البحر المديد لابن عجيبة ج3 ص 299

3) صحيح البخاري ج21 ص 264

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (106) التفات وعود مرة أخرى لمن كفر بعد إيمانه، أي ارتد عن الإسلام حقيقة، أي قلبا وقالبا، أي أفصح عن كفره بعد أن كتمه، قال ابن عاشور هو (استدرك على الاستثناء، وهو احتراس من أن يفهم أن المكره مرخص له أن ينسلخ عن الإيمان من قلبه)[1]، وهذا نوع من الناس لا ولاء له ولا إخلاص، فهو عبد الدرهم وعبد القطيفة، يجري وراءها حيث جرت، قَالَ ﷺ (يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمْ الطَّيَالِسَةُ)[2].

فهؤلاء لا دين لهم، يتخذون الدين ستارا، والدين براء منهم، وأمثال هؤلاء من ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ ومنهم ارتد لأجل منع الزكاة، ومنهم من ارتد واتبع الدجال مسيلمة الكذاب، وهكذا يظهر النفاق في صورة الردة، ليظل الصف المسلم مرصوص بالصادقين وحسب، يقول تعالى (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (العنكبوت/3).

قوله (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآَخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (107) تبين الآيات أنهم عقدوا مقارنة بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة فاستعجلوا متاع الدنيا وآثروه على متاع الآخرة، (ذلك أن العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة، وحساب للربح والخسارة، ومتى آمن القلب بالله فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر من مؤثرات هذه الأرض ؛ فللأرض حساب، وللعقيدة حساب ولا يتداخلان،

1) التحرير والتنوير ج13 ص 237
2) رواه مسلم ج14 ص 181 رقم 5237

وليست العقيدة هزلا، وليست صفقة قابلة للأخذ والرد فهي أعلى من هذا وأعز، ومن ثم كل هذا التغليظ في العقوبة، والتفظيع للجريمة).

قوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ..) (108) أشارت الآية إلى حالهم وأنهم في غفلة التلهي بالدنيا ومتاعها، وقد طغى هذا المتاع على حواسهم فأضحوا لا يتعظون بشئ من آيات الله تعالى، وذلك كقوله (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (الأعراف/179)

قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (108) قال الزمخشري (الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها)[1].

قوله (لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (109) أي أنهم مهما كسبوا من الدنيا فإنهم خاسرون في الآخرة، والعبرة بالآخرة وليس للدنيا شأن مقارنة بالآخرة، (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (الزمر/15).

قوله (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (110) هذه الآية أظهرت الفارق بين من ارتد طمعا في الدنيا، ومن هاجر وترك الدنيا ليلحق

1) الكشاف ج3 ص 403 تفسير أبي السعود ج4 ص 156

www.alukah.net
شبكة الألوكة

برسول الله ﷺ و لم يستسلم للفتنة، قال مقاتل (نزلت فى عياش بن أبى ربيعة المخزومى، وأبى جندل بن سهيل بن عمرو القرشى، من بنى عامر بن لؤى، وسلمة بن هشام بن المغيرة، والوليد بن المغيرة المخزومى، وعبد الله بن أسيد الثقفى)[1]، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ يَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ)[2].

قوله (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) (111) تعريض بالذي ارتد بعد إيمانه ولحق بالكفار و لم يلحق بالمسلمين كيف يجادل عن نفسه يوم القيامة، وماذا يقول لربه ؟ هل له من عذر، وهل كان كفره بالله تقية أم أنه كفر وصدره منشرح للكفر.

1) تفسير مقاتل ج2 ص 240
2) رواه البخاري ج4 ص95 رقم 951

المبحث التاسع

تهيئة المجتمع لاستقبال تشريعات إلهية بالتحليل والتحريم

قال تعالى {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124)}

انتقل الحديث من أهل الهجرة والفرار بدينهم في سبيل الله إلى ضرب المثال بحال أهل مكة لما أخرجت المؤمنين، وظهر أسوأ ما فيها، حيث ضرب الله عليها الجوع والخوف، لما اضطروا المؤمنين أن يلجئوا للهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وهكذا يعاقبهم الله لتكذيبهم رسوله وصدهم عن سبيل الله،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وظلمهم المؤمنين واضطهادهم، ولكن الله سبحانه لا يعاقبهم عقاب استئصال، وإنما يعاقبهم عقاب تذكير،

ثم ينتقل الخطاب إلى المؤمنين فيكشف عنهم العذاب بعد الهجرة ويمتعهم بطيبات المدينة، لعلهم يشكرون، ويبين أحكام المستضعفين الذي لا يجدون طيبا، وأنه لم يحرم عليهم الطيبات، وإنما حرم عليهم الخبائث، و لم يحل هذه الخبائث إلا في حالة الضرورة التي تقدر بقدرها، بذلك يهيئهم لاستقبال أحكام الشريعة الإسلامية فيتعلموا أن الله وحده هو الذي يحل الطيبات ويحرم الخبائث، وليس لأحد أن يفتري على الله فيحل ما حرمه ويحرم ما أحله

وضرب لهم المثال باليهود حيث لم يلتزموا شرع الله، فشدد الله علي أنفسهم وحرموا طيبات أحلها الله لهم، كما في قوله (رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم).

وبهذه المناسبة ذكرت حكم من أسلم من المسلمين وقد أصاب حراما في جاهليته فبينت أنه معفو عنه، فالإسلام يُجب ما قبله.

وفي مقابل هؤلاء الذين اقترفوا السيئات قبل أن يترل عليهم الشرع ثم تابوا فتاب الله عليه انتقلت الآيات لتضرب مثلا لشكر النعم بنبي الله إبراهيم، وقد اجتباه ربه و لم يرتكب السيئات في صغره، فبينت أنه وحده كان أمة، تضاهي أمة قريش التي كفرت بأنعم الله، ولكن إبراهيم عليه السلام أمة شاكرا لنعم

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الله، ولذلك أعقبه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وأوجب اتباع سنته ومنهجه في الشكر، حيث الوسطية والاستقامة

وأخيرا حذرت الايات من الاختلاف في الدين كما وقع أصحاب السبت الذين اختلفوا فيه تحايلا على شرع ربهم وتحللا من الالتزام به، وبهذا يهيئهم لشريعة صلاة الجمعة التي فرضت بعد ذلك في المدينة المنورة، لتكتمل التهيئة للمرحلة المدنية سواء لاستقبال الأحكام العملية أو العبادات التوقيفية.

قوله (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)(112) حسن انتقال من حكاية أحوال المهاجرين والصابرين إلى عرض حال القرية التي أكرهت المؤمنين على الهجرة وأكرهت من بقي منهم على الكفر، قال ابن كثير (هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطَّف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف) [1]، كما قال تعالى (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا) [القصص: 57]، قال بعض أهل العلم: إن هذا مثلٌ ضربه الله لأهل مكة، فيمُن الله على أهلها استجابته لدعوة نبيه إبراهيم (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)، وقوله (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ

1) تفسير ابن كثير ج4 ص 607

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَشْكُرُونَ (37)، وقوله (لإيلاف قريش..فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف).

ولكنهم أبوا أن يشكروا نعمة الله وينضموا لصفوف المؤمنين، بل فتنوهم ليردوهم دينهم، فقد كان النبي ﷺ يدعو على الظالمين الذي أكرهوا الناس على الكفر ، وأكرهوهم على الهجرة، واضطهدوهم في دينهم، فيقول (اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ) [1]، قال ابن عاشور (سوق هذه القصة تعريض بأشباه سبأ) قال تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ..ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) (17)، قال الرازي (فنبه بذلك على أن كون النعمة واصلة إليهم يوجب أن يكون كفرانها سببًا للتبديل)[2].

ولذلك أصاب الله أهل مكة الجوع سبع سنوات إبان هجرة الصحابة إلى الحبشة في السنة الخامسة من البعثة ثم الهجرة الثانية في ذات العام في شوال حتى الهجرة إلى المدينة في السنة الثالثة عشر، وما بين الهجرتين اشتد تعذيبهم للمسلمين، فعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا رَأَى مِنْ النَّاسِ إِدْبَارًا قَالَ اللَّهُمَّ سَبْعٌ كَسَبْعِ يُوسُفَ فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ وَالْجِيَفَ وَيَنْظُرَ أَحَدُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى الدُّخَانَ مِنْ الْجُوعِ فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ تَأْمُرُ

1) رواه البخاري ج4 ص95 رقم 951
2) تفسير الرازي ج2 ص 58

بِطَاعَةِ اللَّهِ وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ)[1].

قوله (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) (113) والمقصود بالعذاب السنين التي شدد الله بها على أهل مكة كسني يوسف عليه السلام، كما في قوله (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) (الدخان/15).

قوله (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (114) إشارة إلى أن الله تعالى قد رفع عنهم العذاب، ورزقهم من الطيبات، بذلك تعود السورة لتذكرهم بنعم الله بعد أن كشف الضر عنهم.

والتنعم بالحلال الطيب –دون تكلف أو إسراف – هو صورة من صور شكر نعمة الله، يقول ابن تيمية كَانَ النبي ﷺ يَأْكُلُ فَاكِهَةَ بَلَدِهِ مَا قُدِّمَتْ لَهُ فَاكِهَةٌ، و لم يترك أكلها – لَا عَلَى سَبِيلِ الزُّهْدِ الْفَاسِدِ وَلَا عَلَى سَبِيلِ الْوَرَعِ الْفَاسِدِ – ؛ بَلْ كَانَ لَا يَرُدُّ مَوْجُودًا ؛ وَلَا يَتَكَلَّفُ مَفْقُودًا)[2]، ولذلك عددت السورة

1) رواه البخاري ج4 ص 96 رقم 952

2) مجموع الفتاوى ج32 ص 212 مع تعديل ما بين القوسين

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كثير من الطيبات مثل (العسل، اللبن، اللحم، التمر، الزيتون، العنب...الخ)، كل ذلك وفي المسلمين صحابة يتمتعون بالخير في المدينة ومستضعفون يذوقون ألوان العذاب بمكة مثل أبو جندل عذّبه أبوه سهيل بن عمرو وحبسه مع أخيه عبد الله بن سهيل حتى منَّ الله عليهم وفتح مكة وأسلم أهلها جميعا.

وفي اقتران الأمر بالأكل من الطيبات، والأمر بالشكر في قوله (فَكُلُوا.. وَاشْكُرُوا)، وتعليق الشكر على العبادة بقوله (إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) استظهار لمعنى العبادة في الإسلام، وأن العبادة في الإسلام تعني التمتع بالطيبات وما أحله الله تعالى بقصد تحقيق مراد الشرع فالمسلم يأكل الطيبات ويشكر ربه، يقول النبي ﷺ (مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ وَمَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)[1]، كما تضمن قوله (إن كنتم إياه تعبدون) توبيخ على عدم الشكر لله تعالى المنعم المتفضل بهذه النعم العظيمة، قال تعالى: (لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) [يس:35] وقال تعالى: (وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ)[يس:73].

يقول الشيخ عبد الله بن فوزان (الشكر دليل بين على ثبوت عبودية العبد لربه وقيامه بها على الوجه المطلوب، ومن أخل بوظيفة الشكر فقد فاته من تحقيق العبودية لرب العالمين بقدر ما فاته من الشكر، لأن الشكر هو مظهر العبادة الحقة، وقال (حقيقة الشكر هي شكر اللسان وشكر القلب وشكر الجوارح، فالشاكر حقيقة هو من قام بهذه الأركان مع ما يكمل ذلك من محبة المشكور والخضوع له واستعمال

1) رواه أبو داود ج11 ص 37 رقم 3505 وصححه الألباني: صحيح أبي داود ج 9ص 23 رقم 4023

نعمه في مرضاته، على أن الإنسان لا يمكن أن يكافئ نعم الله عليه، ولا أن يقوم بوظيفة الشكر لله تعالى، كما دل على ذلك قوله تعالى: (وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) [النحل:18]، فلا يستطيع أحد أن يحصي نعم الله تعالى، لأن أكثر النعم لا يدريها الإنسان، لأنه يألفها فلا يشعر بها إلا حين يفتقدها، وأقرب شيء إليه تركيب جسده ووظائف أعضائه وجوارحه، فهو لا يشعر بما فيه من إنعام الله إلا حين يدركه المرض فيحس بالاختلال، وقد دل آخر الآية على تقصير بني آدم في شكر النعم، لأن من لا يستطيع إحصاء النعم كيف يقوم بشكرها، بل وأيُّ نعمة يعرفها قد لا يدرك حقيقتها، فكيف يقوم بشكرها التام، ولكن حسب الإنسان أن يسدد ويقارب، قال بعض العلماء: (أصبح بنا من نعم الله عز وجل ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه، فما ندري أيُّهما نشكر ؟ أجميل ما ظَهَرَ أم قبيح ما سَتَرَ ؟)[1].

قوله (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (115) انتقال إلى حصر المحرمات في غير الطيبات، فكل ما ليس بطيب فهو حرام، إذن لا يحرم الله الطيبات، ومن حرم ما أحل الله فقد اعتدى، كذلك الله لا يحل الخبائث كما في قوله (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) (الأعراف/157))، ومن أحل ما حرمه الله فقد انتهك حرمات الله، (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف/28).

1) عبد الله بن صالح الفوزان / كيف نكون من الشاكرين ج1 ص 20

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتحريم الأكل محصور في أربعة أشياء علي سبيل الإجمال (الميتة والدم ولحم الخنزير، وما ذبح لغير الله)، وعلة التحريم تكلمنا عنها في سورة المائدة، وقد استثنى الله من التحريم أحوال الضرورة مع تقييدها بقدرها، فنفى أن يكون الباغي والعادي مستفيدا من حالة الإباحة في مثل هذه الظروف، بل يجب الالتزام بحالة الضرورة وبقدرها، فلا يجوز لمن وقع في مخمصة أو مجاعة أن يتجاوز حد سد الرمق فيأكل حتى الشبع أو التخمة، فذلك من باب الدعوان وليس من باب دفع الضر، بل يأكل بقدر الضرورة حتى لا يهلك، ويكف عما زاد عن ذلك، والفقهاء وضعوا شروط وضوابط تطبيق نظرية الضرورة استنباطا من هذه الآية، وعمموها في كل المجالات، وأصلوا عليها عدة قواعد فقهية، منها (الضرر يزال)، (الضرورة تقدر بقدرها)، (الضرر الأكبر يدفع بالضرر الأصغر)، الضرورات تبيح المحظورات،....الخ وكل ذلك وفقا لنظرية المقاصد الإسلامية وترتيب الأولويات وهو ما أبدع فيه الإمام الشاطبي في الموافقات.

قوله (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ..) (116) قال العلماء (نهى الله عن التحليل والتحريم بدون دليل من الكتاب والسنة، وأخبر أن ذلك من الكذب على الله، كما أخبر سبحانه أنَّ من أوجَبَ شيئًا أو حرَّمَ شيئًا من غير دليل؛ فقد جعل نفسه شريكًا لله فيما هو من خصائصه، أي التشريع، قال تعالى: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى/21]

كذلك من أطاع هذا المشرِّع من دون الله وهو يعلم بذلك ووافقه على فعله، فقد أشركه مع الله، قال تعالى: (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) [الأنعام/121][1].

بل إن الاقتراب من مسألة التشريع ولو بالسؤال جرم في الإسلام لأنها مسألة لصيقة بحق الإله الخالص، يقول النبي ﷺ (إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ)[2]، وقال النبي ﷺ (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ)[3]، يقول النبي ﷺ (إن الله عز وجل فرض فرائض فلا تضيعوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها وحد حدودا فلا تعتدوها وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها)[4].

قوله (إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (117) هؤلاء هم المشرعون بخلاف شرع الله، يريدون أن يصيبوا الحق فيأتون بالباطل، وبغيتهم في ذلك إصابة شيء من متاع الدنيا، فيحقر الله متاعهم بوصفه أنه قليل، وعاقبتهم العذاب الأليم، وليس يأتي من فعلهم هذا خير عام، لقوله سبحانه (إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) (81)، فهو أشبه بأعمال السحر لا يفلح صانعها.

---

1) صالح بن فوزان: عقيدة التوحيد ج1 ص 33

2) رواه البخاري ج22 ص 257 رقم 6745

3) رواه مسلم ج12 ص 43 رقم 4348

4) رواه الدارقطني ج4 ص 183 رقم 42 قال الألباني حسن لغيره: انظر تخريج شرح الطحاوي ج1 ص 338

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (118) هذا هو المثال الذي قصه الله ليعلم الأمة عدم جواز الاقتراب من مسألة التشريع إلا بدليل من الكتاب والسنة، قال الشنقيطي المقصوص عليه من قبل المحال عليه هنا هو المذكور في "سورة الأنعام"، في قوله: (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) [الأنعام/146][1]، فاليهود لم يكونوا مؤهلين لاستبقال التشريع الإلهي بإذعان وتسليم، بل نظروا للمصلحة المتوهمة في أنظارهم، فوجدوا أن تشريع الله يتعارض معها، فقدموا مصلحتهم على شرع ربهم فضلوا وأضلوا، وظلوا أنفسهم، يقول النبي ﷺ (قَالَ قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ لَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوهَا)[2]، قال النووي (يقال أجمل الشحم وجمله أي أذابه)[3]، أي أن الله لما حرم عليهم دهون الميتة قاموا بإذابة الدهن ليصير زيتا، وباعوه لغيرهم فيأكله، بذلك لم يحلوا ما حرموه الله بل تحايلوا على شرعه، قال النووي (والضمير في (هو) –أي هو حرام- يعود إلى البيع لا إلى الانتفاع هذا هو الصحيح عند الشافعي وأصحابه أنه يجوز الانتفاع بشحم الميتة في طلى السفن والاستصباح بها وغير ذلك مما ليس بأكل ولا في بدن الآدمي)[4]، بمعنى أنهم لم يحترزوا في بيعها على هذه الصورة بعد إذابتها هل الذي يشتريها سوف يتخذها للأكل منها أم لطلي السفن والاستصباح بها، فإذا كان للأكل فالتأكيد سوف يذيبونها ويحفظونها كدرجة أولى، أما إذا كانت لطي السفن والاستصباح فلا يضيرهم ما فيها من شوائب.

---

1) أضواء البيان ج2 ص 463
2) رواه البخاري ج14 ص 169 رقم 4267
3) شرح النووي على مسلم ج11 ص 6
4) المرجع السابق

إذن أراد الله تعالى بتنزيل سورة النحل تدريب الصحابة على استقبال التشريع القرآني في العهد المدني أولا بأول، فلا يستعجلون شيئا قبل أوانه، (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)، مثلما نزل التشريع بتحريم الخمر في موعده، لأن الله سبحانه أعلم بوقت تحريمه، وليس قبل أن يهتدي الناس على العقيدة الصحيحة ويتشبعون من التفكر في خلق الله ونعمه، ويتعلمون شكره، فإذا ما تزكى المجتمع لهذه المرحلة فإنه يتأهلون لمرحلة أعلى من التشريع الإلهي حيث الحلال والحرام وهكذا.

قوله (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119) الآية من قبيل الاستدراك، وهي على عمومها في كل سوء لم يعلم مرتكبه بالتحريم، وإن خصصها البعض بتحريم ما أحله الله في الجاهلة، وأوضح من هذا المثال شرب الخمر قبل تحريمه في المدينة، كما في قوله (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (93)، أي لا جناح قبل العلم بالتحريم، وكذا لعب الميسر والتعامل بالربا، فلم يترل قرآن بتحريمها إلا في أواخر العهد المدني، قال ابن عاشور (لما ذكرت أحوال أهل الشرك وكان منها ما حرموه على أنفسهم، وكان المسلمون قد شاركوهم أيام الجاهلية في ذلك، أراد الله أن يطمئنهم بأنهم لما تابوا بالإقلاع عن ذلك بالإسلام وأصلحوا عملهم بعد أن أفسدوا فإن الله قد غفر لهم) [1].

1) التحرير والتنوير ج13 ص 252

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (120) انتقلت الآيات لتضرب المثال بنبي الله إبراهيم في الصفاء والنقاء حيث لم تشوبه شائبة، ومناسبة ذكره جاءت بعد ذكر حكم من ارتكب السيئات في الجاهلية بجهالة ثم تاب وأصلح، بينما نبي الله إبراهيم آتاه الله رشده وهو صغير، فلم يرتكب المحرمات، و لم يضل مثل قومه، وذلك قبل أن يترل عليه الوحي.

واستشهد به لإثبات النقيض، حيث يعرف الحق بالعقل والشرع معا، ويمكن أن يستدل عليه بالعقل قبل الشرع كما هو شأن نبي الله إبراهيم، لكن إذا نزل الشرع فيقتصر عمل العقل في الاستنباط والاجتهاد في إطار الشرع، وهكذا كان نبي الله إبراهيم، حيث ابتلاه الله عدة ابتلاءات، وقد وفَّى كل ما عليه من واجبات، فكان قدوة للناس، وقد وصفه الله بأنه كان أمة، (قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا) أي قدوة للأمة، لأنه، قال تعالى (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) [النجم/37]، قال ابن تيمية (وَ"الْأُمَّةُ" هُوَ مُعَلِّمُ الْخَيْرِ الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ، كَمَا أَنَّ " الْقُدْوَةَ " الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ)[1].

فالإشارة لنبي الله إبراهيم عليه السلام في السياق للدلالة على أسلوب تطبيق المنهج الإلهي، حيث تميز بالقنوت لله، وعدم الانقطاع عن الدعاء كما عُرف بالدعاء (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي

1) الفتاوى الكبرى ج5 ص 195

شبكة الألوكة - قسم الكتب

عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (39) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (40) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (41).

والمقصود بالحنفية "الاعتدال على المنهج دون الميل إلى أي جانب"، فعن بن عباس قال: سئل النبي ﷺ أي الأديان أحب إلى الله عز وجل قال (الحنيفية السمحة)[1]، والمقصود بالحنيفية، سير القاصد مستقيما، وهو ما دلل عليه البخاري بقوله "بَاب الدِّينُ يُسْرٌ" وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ، وأورد بعده حديث النبي ﷺ قال (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ)[2]، وعن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء بعث إليه رسول الله ﷺ فقال يا عثمان اني لم أومر بالرهبانية أرغبت عن سنتي قال لا يا رسول الله قال ان من سنتي ان أصلي وأنام وأصوم وأطعم وأنكح وأطلق فمن رغب عن سنتي فليس مني يا عثمان ان لأهلك عليك حقا ولنفسك عليك حقا قال سعد فوالله لقد كان أجمع رجال من المسلمين على أن رسول الله ﷺ إن هو أقر عثمان على ما هو عليه أن نختصي فنتبتل)[3].

ووصفه بالحنيفية اقترن بأنه لم يكن من المشركين، أي لم يزغ عن الحق لا في صغر ولا في كبره، يقول النبي ﷺ (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ)[4]، فلم يستسلم هذا

---

1) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 108 رقم 287 صححه الألباني: صحيح الأدب المفرد ج1 ص 125

2) رواه البخاري ج1 ص 69 رقم 38

3) رواه الدارمي في سننه ج2 ص 179 رقم 2169 وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة مختصرة ج1 ص 750 رقم 394

4) رواه مسلم ج13 ص 127 رقم 4803

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النبي لشرك قومه وعبادتهم غير الله، وهم حوله يحاصرونه من كل جانب، و لم يكن له من يعينه على ذلك، وإنما ظل على فطرته التي خلقه الله عليها رغم أن قومه كانوا كافرين، فأراد الله أن يهتدي الناس لأصل فطرتهم بتذكيرهم بهذا النبي الكريم

وكونه لم يكن من المشركين وصف جامع مانع لكونه كان أمة، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: " إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا)، قَالَ: كَانَ عَلَى الأسلام و لم يكن في زمانه مِنْ قَوْمِهِ أحد عَلَى الإسلام غيره، فلذلك قَالَ الله: " كَانَ أُمَّةً قَانِتًا)"[1].

قوله (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ) أي: قام بجميع ما أمره الله تعالى به[2]، كما قال: (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) [النجم: 37]، قال ابن عجيبة (لا يخل بشكر قليل منها ولا كثير)[3]، (وقد عُلم أن من شكره لله أنه كان يكرم ضيفه حتى أنه جاء لهم بعجل حنيذ)، قال الألوسي (وفي بعض الآثار أنه عليه السلام كان لا يتغدى إلا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفًا فأخر غداءه)[4].

1) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 127
2) تفسير ابن كثير ج4 ص 611
3) البحر المديد ج3 ص 307
4) تفسير الألوسي ج10 ص 333

قوله (اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (121) فالاجتباء والاصطفاء بعد الابتلاء والاختبار بالضر والنعمة، وقد تجاوز نبي الله إبراهيم هذه المراحل جميعا فكان أهلا للاجتباء والولاية، فالاجتباه يكون بعد الابتلاء، قالَ تَعَالَى(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ).

فالاجتباء نوع من الاصطفاء والإنجاء، كما هو ظاهر في توبة آدم ويونس بن متا، ففي آدم قال تعالى (وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) (122)، وفي يونس قال تعالى (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) (القلم/50)

والاهتداء إلى صراط مستقيم، يعني الاهتداء إلى صراط الله، أي تطبيق شرع الله وأحكامه، قال تعالى (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) (الشورى/53)، قال تعالى (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (هود/56)، أي التثبيت على الحق.

قوله (وَآَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآَخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) (122) فالله عز وجل يصلح لعباده الصالحين شأن الدنيا بعدما يجتازون مرحلة الابتلاء والاجتباء، كما هو حال نبي الله إبراهيم فقد مر بتجربة ضيق وكرب لما اعتزل قومه وقد نجاه الله من النار، قال تعالى: (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا)

www.alukah.net
شبكة الألوكة

[19/ 49-50]، قال بعض العلماء: (الحسنة التي آتاه الله في الدنيا: الذرية الطيبة، والثناء الحسن، وذلك لاعتزاله أهل الشرك.

قوله (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (123) انتقل الخطاب إلى النبي ﷺ بعدما كان يحكي عن نبي الله إبراهيم، ليتخذ النبي محمد ﷺ أبيه إبراهيم عليه السلام قوة حسنة له ولأمته، فعن عبد الرحمن بن أبزى قال: كان النبي ﷺ إذا أصبح قال (أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)[1]، وفي ذلك دليل على وحدة هذا الدين، وأنه يتوارث عملا كما أنه يتوارث قولا.

فالنبي محمد ﷺ متبعا وليس مبتدعا، فهو يعلم سيرة نبي الله إبراهيم وسنته ليقتدي به، ونحن نتعلم سيرة النبي محمد ﷺ ونتقدي به، فنكون باقتدائنا بمحمد ﷺ قد اقتدينا بإبراهيم عليه سلام، وبذلك يكون جميع الأنبياء مقتدين به، بذلك نعلم أن الأنبياء جميعا دينهم واحد.

ولعل السورة لم تشر إلى نبي الله نوح وصالح وهود وهم قبل إبراهيم عليه السلام، لأن النبوة بعد نبي الله إبراهيم أضحت عالمية ومركزها مكة، بينما كل نبي قبل إبراهيم عليه السلام كان يبعث إلى قومه خاصة فيهلكوا، أما نبي الله إبراهيم عليه السلام فقد تحرك بدعوته إلى من العراق إلى الحجاز ثم انتقل بها إلى الأردن وفلسطين ومصر، وقد استوطن أهله مكة التي تمر عليها القوافل من الشام واليمن، وأضحى

1) رواه النسائي في سننه الكبرى ج6 ص 93 رقم 10175 وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة ج7 ص 190 رقم 2989

ابنه إسماعيل واسحاق أنبياء، وهكذا انتشر أمر الدعوة، وأضحى غير محدود بنطاق مكاني، بل أضحت سنته العملية تحكي عنها الأمم، ويمكن القول بأن سيرة الأنبياء قبله كادت أن تندثر.

فـ "الاتباع" يعني الاستقامة على المنهج والاعتصام به، ففي الحديث عن سُفْيَانَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيَّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ قَالَ قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ)[1]، وفي رواية مسلم عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قَالَ قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ)[2]، والاستقامة تتطلب السير من غير ميل إلى الإفراط ولا التفريط في، وذلك يحتاج إلى صبر ومجاهدة [3].

قوله (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (124) انتقال لعرض الصورة المذمومة التي من شأنها التفريط في حقوق الله، وفيها إشارة كذلك إلى أهل التحايل على أحكام الشرع للتحلل منه، وفي ذلك تحذر لأمة النبي ﷺ أن تتعامل مع شرع ربها كما تعامل أصحاب السبت مع نبيهم.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَضَلَّ اللَّهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ

1) رواه ابن ماجة ج11 ص 468 رقم 3962 وصححه الألباني: صحيح سنن ابن ماجة ج2 ص 358 رقم 3208
2) رواه مسلم ج1 ص 145 رقم 55
3) في هذا المعنى: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج15 ص 290

www.alukah.net

الْقِيَامَةِ نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ)[1]، قال ابن الجوزي (إنما وقع إضلال القوم بمخالفة نبيهم قال ابن عباس قال موسى لقومه تفرغوا لله عز وجل في كل سبعة أيام يوما فاعبدوه يوم الجمعة فقالوا لا إلا يوم السبت وقيل كان سبب اختيارهم السبت أنهم زعموا أن الله تعالى فرغ يوم السبت من الخلق فقالوا فنحن نستريح فيه من عمل الدنيا ونتشاغل بالتعبد والشكر فألزموه عقوبة لهم واختارت النصارى الأحد وقالوا هو أول يوم بدأ الله فيه الخلق فهو أولى بالتعظيم فهدانا الله ليوم الجمعة وهو اليوم، الذي خلق فيه آدم وهو سابق السبت والأحد فنحن السابقون لهم في التعبد وأمتنا – وإن تأخر وجودهم – فهم السابقون إلى الفضل وإلى دخول الجنة وقوله المقضي لهم أي على جميع الأمم لأن حجتهم توجب على من سبقهم أن يتبعهم)[2].

وفي ذلك تمهيد واضح لاقتراب التنزيل بتشريع إلهي بتخصيص يوم الجمعة لصلاة الجمعة والتبكير بها بعد صلاة الفجر، وترك الانشغال بالدنيا تعظيما لهذه الشعيرة، وما له من بالغ الأثر في اظهار هذا الدين للناس، ولمزيد من التفصيل يراجع تفسير سورة الجمعة.

1) رواه مسلم ج4 ص 332 رقم 1415

2) كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 260

خاتمة السورة

قال تعالى {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)}

قوله (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ..) (125) قال ابن عاشور (تترل معنى هذه الآية مترلة البيان لقوله: (أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) [النحل:123]، أي اقتدي به في دعوة قومك كما دعا قومه بالحكمة والموعظة والمجادلة.

قال ابن القيم (جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمتسجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بالموعظة الحسنة وهي الامر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن هذا هو الصحيح في معنى هذه الاية)[1]، ولذلك قسم بن تيمية طرق الدعوة وفق هذه الآية إلى ثلاث طرق بحسب أنواع القلوب، فقال (الْقُلُوبُ الَّتِي لَهَا فَهْمٌ وَقَصْدٌ تُدْعَى بِـ "الْحِكْمَةِ"، فَيُبَيِّنُ لَهَا الْحَقُّ عِلْمًا وَعَمَلًا فَتَقْبَلُهُ وَتَعْمَلُ بِهِ، وَآخَرُونَ يَعْتَرِفُونَ بِالْحَقِّ لَكِنَّ لَهُمْ أَهْوَاءً تَصُدُّهُمْ عَنْ اتِّبَاعِهِ فَهَؤُلَاءِ يُدْعَوْنَ بِـ "الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْحَقِّ وَالتَّرْهِيبِ مِنْ الْبَاطِلِ، وَالْوَعْظُ أَمْرٌ وَنَهْيٌ بِتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ

1) مفتاح دار السعادة ج1 ص 153

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ) وَقَالَ تَعَالَى (يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا)، فَالدَّعْوَةُ بِهَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ لِمَنْ قَبِلَ الْحَقَّ، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْهُ فَإِنَّهُ "يُجَادَلُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ". وَالْقُرْآنُ مُشْتَمِلٌ عَلَى هَذَا وَهَذَا، وَلِهَذَا إِذَا جَادَلَ يَسْأَلُ وَيَسْتَفْهِمُ عَنْ الْمُقَدِّمَاتِ الْبَيِّنَةِ الْبُرْهَانِيَّةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَحَدٌ أَنْ يَجْحَدَهَا ؛ لِتَقْرِيرِ الْمُخَاطَبِ بِالْحَقِّ وَلِاعْتِرَافِهِ)[1].

قال ابن تيمية في هذه الآية (ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو، فإنه إما أن يكون طالبا للحق راغبا فيه محبا له مؤثرا له على غيره إذا عرفه فهذا يدعى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال، وإما أن يكون معرضا مشتغلا بضد الحق ولكن لو عرفه عرفه وآثره واتبعه فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معاندا معارضا فهذا يجادل بالتي هي أحسن فإن رجع إلى الحق وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن)[2].

قوله (بِالْحِكْمَةِ) قال ابن القيم الجوزية (الْحِكْمَةُ تَعْرِيفُ الْحَقِّ، فَالْعِلْمُ بِالْحَقِّ يَدْعُو صَاحِبَهُ إِلَى اتِّبَاعِهِ، فَإِنَّ الْحَقَّ مَحْبُوبٌ فِي الْفِطْرَةِ، وَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْهَا وَأَجَلُّ فِيهَا وَأَلَذُّ عِنْدَهَا مِنْ الْبَاطِلِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ، فَإِنَّ الْفِطْرَةَ لَا تُحِبُّ ذَاكَ)[3].

1) مجموع الفتاوى ج19 ص 164
2) الصواعق المرسلة ج4 ص 1276
3) التبيان في أقسام القرآن ج1 ص 131

(ومن الحكمة معرفة الدوافع والأسباب التي دفعت المدعوَّ إلى التقصير والمخالفة والوقوع في الخطأ حتى يختار الأسلوب المناسب للعلاج والتوجيه والدعوة والإرشاد؛ فأسلوب دعوة الجاهل يختلف عن أسلوب دعوة العالم، والمقصِّر المعترف بتقصيره وضعفه يختلف عن المعاند والمكابر، وهكذا....)[1].

وقال ابن القيم في قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (ق37) (المنتفع بالايات من الناس نوعان أحدهما ذو القلب الواعي الزكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه فهذا لا يحتاج إلا الى وصول الهدى إليه فقط لكمال استعداه وصحة فطرته، فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوبا فيه فهو قد أدركه مجملا ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا،وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هي حال الصديق الأكبر رضي الله عنه)[2].

قوله (وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ..) قال الألوسي (الموعظة الحسنة دون الحجة، وفوق الجدل، والمدعوين بها المتوسطين الذين لم يبلغوا في الكمال حد الحكماء المحققين، و لم يكونوا في النقصان بمرتبة أولئك المشاغبين وسطت بين الأمرين) [3]، قال ابن تيمية (الانسان له ثلاثة أحوال إما أن يعرف الحق ويعمل به،وإما أن يعرفه ولا يعمل به، وإما أن يجحده، فأفضلها أن يعرف الحق ويعمل به، والثاني أن يعرفه لكن

---

1): https://www.alukah.net/sharia/0/147455/

2) مفتاح دار السعادة ج1 ص 171

3) تفسير الألوسي ج10 ص 342

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نفسه تخافه فلا توافقه على العمل به، والثالث من لا يعرفه بل يعارضه، فصاحب الحال الاول هو الذي يدعى بالحكمة فإن الحكمة هي العلم بالحق والعمل به، فالنوع الأكمل من الناس من يعرف الحق ويعمل به فيدعون بالحكمة، والثاني من يعرف الحق لكن تخالفه نفسه فهذا يوعظ الموعضة الحسنة فهاتان هما الطريقان الحكمة والموعظة وعامة الناس يحتاجون إلى هذا وهذا فإن النفس لها اهواء تدعوها إلى خلاف الحق وإن عرفته،فالناس يحتاجون إلى الموعظة الحسنة وإلى الحكمة فلا بد من الدعوة بهذا وهذا.

قال ابن القيم (أطلق الحكمة و لم يقيدها بوصف الحسنة إذ كلها حسنة ووصف الحسن لها ذاتي وأما الموعظة فقيدها بوصف الإحسان إذ ليس كل موعظة حسنة) [1]، ويشهد لذلك ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فَصَلَّى قَالَ ابْنُ عَبْدَةَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ بَالَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ فَأَسْرَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ فَنَهَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ صُبُّوا عَلَيْهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ أَوْ قَالَ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ)[2]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ فَقُلْتُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ فَقُلْتُ وَاثُكْلَ أُمِّيَاهُ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمْ يُصَمِّتُونِي فَقَالَ عُثْمَانُ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُسَكِّتُونِي لَكِنِّي سَكَتُّ قَالَ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَبِي وَأُمِّي مَا ضَرَبَنِي وَلَا كَهَرَنِي وَلَا سَبَّنِي ثُمَّ قَالَ إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَحِلُّ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ

---

1) مدارك السالكين ج1 ص 446

2) رواه أبو داود ج1 ص 462 رقم 324 وصححه الألباني:صحيح أبي داود ج 4ص36 رقم 825 وهو عند البخاري مختصرا في صحيحه ج18ص425رقم5551

النَّاسِ هَذَا إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا قَوْمٌ حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ وَقَدْ جَاءَنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَمِنَّا رِجَالٌ يَأْتُونَ الْكُهَّانَ قَالَ فَلَا تَأْتِهِمْ قَالَ قُلْتُ وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ قَالَ ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يَصُدُّهُمْ قُلْتُ وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ قَالَ كَانَ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ قَالَ قُلْتُ جَارِيَةٌ لِي كَانَتْ تَرْعَى غُنَيْمَاتٍ قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ إِذْ اطَّلَعْتُ عَلَيْهَا اطِّلَاعَةً فَإِذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْهَا وَأَنَا مِنْ بَنِي آدَمَ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً فَعَظُمَ ذَاكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ أَفَلَا أُعْتِقُهَا قَالَ ائْتِنِي بِهَا قَالَ فَجِئْتُهُ بِهَا فَقَالَ أَيْنَ اللَّهُ قَالَتْ فِي السَّمَاءِ قَالَ مَنْ أَنَا قَالَتْ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ)[1].

قوله (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (125) قال الألوسي (الجدل أدنى الدلائل إذ ليس المقصود منه سوى إلزام الخصم وإفحامه ولا يستعمل إلا مع الناقصين الذين تغلب عليهم المشاغبة والمخاصمة، فالجدال ليس من باب الدعوة بل المقصود منه غرض آخر مغاير لها وهو الإلزام والإفحام)[2].

وقال ابن القيم (وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان نوع يدعون بالمجادلة بالتي هي أحسن فإن استجابوا وإلا فالمجادلة فهؤلاء لا بد لهم من جدال أو جلاد، ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام متناولة لها كلها كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم

1) رواه أبو داود ج3 ص 114 رقم 795 وصححه الألباني: صحيح أبي داود ج 4 ص 87
2) تفسير الألوسي ج10 ص 342

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بالتي هي أحسن فهؤلاء المدعوون بالكلام وأما أهل الجلاد فهم الذين امر الله قتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)[1].

قال ابن تيمية (وأما الجدل فلا يدعى به بل هو من باب دفع الصائل فإذا عارض الحق معارض جودل بالتي هى أحسن، ولهذا قال وجادلهم فجعله فعلا مأمورا به مع قوله ادعهم فأمره بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وأمره أن يجادل بالتي هى أحسن، وقال في الجدال (بالتي هى أحسن) و لم يقل بالحسنة كما قال في الموعظة لأن الجدال فيه مدافعة ومغاضبة، فيحتاج أن يكون بالتي هي أحسن حتى يصلح ما فيه من الممانعة والمدافعة والموعظة لا تدافع كما يدافع المجادل فما دام الرجل قابلا للحكمة أو الموعظة الحسنة أو لهما جميعا لم يحتج إلى مجادلة، فاذا مانع جودل بالتي هى أحسن)[2].

والمجادلة بعلم كما أن الحكمة بعلم وقد ذم الله من يجادل بغير علم، فقال تعالى (هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) والله لا يأمر المؤمنين أن يجادلوا بمقدمة يسلمها الخصم إن لم تكن علما فلو قدر أنه قال باطلا لم يأمر الله أن يحتج عليهم بالباطل)[3].

قوله (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (125) تحرير للنبي ﷺ وأصحابه ومن اهتدى بهداهم من أن يحملوا أنفسهم عبئا يزيد عما كلفوا بهم، فليس عليهم أن يتحسروا على من

1) مفتاح دار السعادة ج1 ص 171
2) الرد على المنطقيين ج1 ص 468
3) الرد على المنطقيين ج1 ص 468

ضل، وليس عليهم تحمل عبء تحقيق نتيجة البلاغ، فليس عليهم هداية الناس، وليسوا مسئولين عن ضلال من ضل منهم عن السبيل الله، يقول سبحانه (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (القصص/56).

قوله (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) هذه الآية هي أول تمهيد للجهاد في سبيل الله بعدما صبر الصحابة على أذى المشركين في مرحلة كف اليد ثلاث عشرة سنة، حيث نزل قوله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره)، (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله)، فكان الصحابة لا يردون الإساءة بمثلها، بل يصبرون على أذى المشركين، وأقصى ما أمروا به أن يهاجرون من ديارهم، فلما أذن الله لهم بجهاد المشركين، غلبوا المشركين في (بدر)، وغُلبوا في (أُحد) وقد أصاب المشركين حمزة بن عبد المطلب وهو عم النبي ﷺ وأسد الله، ومثلوا به، فحزن المسلمون حزنا شديدا على قتلاهم، وأرادوا أن يعاقبوا قريش على تمثيلهم بجثة حمزة رضي الله عنه، فعن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ومن المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا به، فقالت الأنصار لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم، فلما أن كان يوم فتح مكة فأنزل الله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) فقال رجل لا قريش بعد اليوم فقال رسول الله ﷺ كفوا عن القوم غير أربعة)[1].

من هنا وضع الإسلام قواعد للجهاد في سبيل الله، بحيث يكون في إطار دفع العدوان، فعَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ

1) رواه النسائي ج6 ص 376 رقم 11279 وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة المجلدات ج5 ص 376 رقم 2377

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا)[1]

ومن الطريف وقبل الختام نذكر لطيفة تفيد توسيع مفهوم الآية ليشمل القصاص في مجالات أخرى غير جنائية، وفي صورة استيفاء الحق ولو غصبا لمن له الحق وفي حدود المعروف الذي له، ودون أن يترتب عليه ضرر أكبر، حيث أورد البخاري تحت عنوان هذا الباب ما روي عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ جَاءَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ مِسِّيكٌ فَهَلْ عَلَيَّ حَرَجٌ أَنْ أُطْعِمَ مِنْ الَّذِي لَهُ عِيَالَنَا فَقَالَ لَا حَرَجَ عَلَيْكِ أَنْ تُطْعِمِيهِمْ بِالْمَعْرُوفِ) [2]، وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ قُلْنَا لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّكَ تَبْعَثُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ لَا يَقْرُونَا فَمَا تَرَى فِيهِ فَقَالَ لَنَا إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأُمِرَ لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ) [3].

قوله (وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) (126) (هذا ندب إلى الصبر وترك عقوبة من أساء إليك فإن العقوبة مباحة، وتركها أفضل)[4]، هذا على وجه الخصوص إذا لم يأمن نتيجة فعله أو كان الضرر المتوقع أشد من جبر الضرر الأول، فعن عُقْبَةُ قَالَ (لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِفَوَاضِلِ الْأَعْمَالِ فَقَالَ يَا عُقْبَةُ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ)[5].

---

1) رواه مسلم ج9 ص 150 رقم 3261
2) رواه البخاري ج8 ص 342 رقم 2280
3) رواه البخاري ج8 ص 343 رقم 2281
4) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 875
5) رواه أحمد ج35 ص 206 رقم 16696 وصححه الألباني لغيره: صحيح الترغيب والترهيب ج2 ص 339

عن أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّىﷺ خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ لَهُ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ قَالَ مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ فَقَالَ عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ فَقَالَ أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ صَبَوْتَ قَالَ لَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ)[1]، قال النووي في قوله ﷺ (أطلقوا ثمامة) (فيه جواز المن على الأسير وهو مذهبنا ومذهب الجمهور) [2].

قوله (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) قال ابن عاشور (خص النبي ﷺ بالأمر بالصبر للإشارة إلى أن مقامه أعلى، فهو بالتزام الصبر أولى أخذا بالعزيمة بعد أن رخص لهم في المعاقبة)[3].

1) رواه البخاري ج13 ص 277 رقم 4024
2) شرح النووي على مسلم ج12 ص 88
3) التحرير والتنوير ج13 ص 370

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال ابن تيمية (فلا بد من هذه الثلاثة العلم والرفق والصبر، العلم قبل الأمر، والنهي والرفق معه، والصبر بعده وإن كان كل من الثلاثة لا بد أن يكون مستصحبا في هذه الأحوال، وهذا كما جاء في الاثر عن بعض السلف لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر الا من كان فقيها فيما يأمر به فقيها، فما ينهي عنه رفيقا فيما يأمر به رفيقا فيما ينهى عنه، حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه)[1]

وقال ابن تيمية (أَخْبَرَ أَنَّ صَبْرَهُ بِاَللَّهِ، فَاَللَّهُ هُوَ الَّذِي يُعِينُهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ عَلَى الْمَكَارِهِ بِتَرْكِ الِانْتِقَامِ مِنْ الظَّالِمِ ثَقِيلٌ عَلَى الْأَنْفُسِ لَكِنَّ صَبْرَهُ بِاَللَّهِ كَمَا أَمَرَهُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ فِي قَوْلِهِ: (وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ).. مَأْمُورٌ أَنْ يَصْبِرَ لِلَّهِ لَا لِغَيْرِهِ.. فَإِنَّ الصَّبْرَ وَسَائِرَ الْحَوَادِثِ لَا تَقَعُ إلَّا بِاَللَّهِ ثُمَّ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ وَقَدْ لَا يَكُونُ فَمَا لَا يَكُونُ بِاَللَّهِ لَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ لِلَّهِ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ. وَلَا يُقَالُ: وَاصْبِرْ بِاَللَّهِ فَإِنَّ الصَّبْرَ لَا يَكُونُ إلَّا بِاَللَّهِ لَكِنْ يُقَالُ: اسْتَعِينُوا بِاَللَّهِ وَاصْبِرُوا فَنَسْتَعِينُ بِاَللَّهِ عَلَى الصَّبْرِ)[2].

قال ابن القيم (الصبر على ثلاثة أنواع: صبر بالله وصبر لله وصبر مع الله:

فالأول: أول الاستعانة به ورؤيته أنه هو المصبر وأن صبر العبد بربه لا بنفسه كما قال تعالى (واصبر وما صبرك إلا بالله) يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله وإرادة وجهه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأعراض

والثالث: الصبر مع الله وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية صابرا نفسه معها سائرا بسيرها مقيما بإقامتها يتوجه معها أين توجهت ركائبها ويترل معها أين استقلت مضاربها.

---

1) مجموع الفتاوى ج28 ص 138

2) مجموع الفتاوى ج8 ص 329

فهذا معنى كونه صابرا مع الله أي قد جعل نفسه وقفا على أوامره ومحابه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها وهو صبر الصديقين)[1].

قوله (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) (127) قال الشعراوي (أرشده الله بأنْ يُوجّه طاقة الحنان والمودَّة التي في قلبه إلى مَنْ يستحقها، وهم المؤمنون برسالته ﷺ ؛ وعليه أنْ يخفضَ جناحه للمؤمنين، فإن حزن الرسول ﷺ لعدم إيمان صناديد قريش برسالته؛ فهذا الحُزْن إنما يخصم ويأخذ من طاقته؛ فيأتيه الأمر من الحق سبحانه أن يُوفِّر طاقته، وأنْ يُوجِّهها لَمَنْ آمن به؛ وأن يخفِضَ جناحه لهم)[2].

وهذا النص يصور حساسية قلبه ﷺ وحزنه على مصير قومه الذي يعلمه من مصائر المكذبين قبلهم، ويدل كذلك على شدة مكرهم به وبالدعوة وبالمسلمين حتى ليضيق صدره الرحب الكبير.

قوله (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) (128) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) [3].

---

1) مدارج السالكين ج2 ص 157

2) تفسير الشعراوي ج1 ص 4824

3) رواه البخاري ج20 ص 158 رقم 6021

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المحتويات

سورة النحل المعروفة بالنعم..... 2
مقدمة السورة..... 7
المبحث الأول..... 10
استظهار نعم الله تعالى على عباده..... 10
المبحث الثاني..... 31
مجادلة بالباطل وإكراه المستضعفين..... 31
المبحث الثالث..... 65
غاية الرسل صناعة متفكرين في توحيد الكون لله..... 65
المبحث الرابع..... 79
الوحي والرسالة رحمة الله بالظالمين وإن كانوا مفترين..... 79
المبحث الخامس..... 89
عودة للتذكير بنعم الله واستظهار قدرته على الرزق..... 89
المبحث السادس..... 132
شهادة الرسول على أمته حال تلبسهم بالعذاب يوم القيامة..... 132
المبحث السابع..... 142
استظهار مبادئ الإسلام لتأكيد العهد مع المؤمنين وإقامة الحجة على الناكثين..... 142
المبحث الثامن..... 155
تثبيت الفئة المستكره على الكفر وحضها على الجهاد والهجرة..... 155
المبحث التاسع..... 171
تهيئة المجتمع لاستقبال تشريعات إلهية بالتحليل والتحريم..... 171
خاتمة السورة..... 189

شبكة الألوكة - قسم الكتب